مجلة جامعة الزيتونة الدولية للنشر العلمي
Zaytoonah University International
Journal for Scientific Publishing
Issue N.32-Vol.1 / ISSN:2958-8537

العدد الثاني والثلاثون (32)، المجلد الأول
تاريخ 30 – 3 – 2025
(ص40 لـ ص73)

أساطير الطبيعة ومظاهرها في الفكر الجاهلي

Myths of Nature and its Manifestations in Pre-Islamic Thought

د. غادة حسن عشبة
Dr. Ghada Hassan Eshba
أستاذ الدراسات الأدبية المساعد –كلية الآداب – جامعة الجوف ودمنهور
gheshba@ju.edu.sa

الملخص:

يتناول هذا البحث فكرة الأساطير عند العرب القدماء الجاهليين، وكيف أثرت هذه الأساطير في فكر الجاهلي، وغيّرت من أفكاره ومعتقداته وعاداته وتقاليده في أموره الحياتية؛ هذه التغييرات التي شملت كل مناحي حياته؛ لذا فقد عرض البحث أولا لمفهوم الأسطورة، ثم خص البحث أهم الأساطير التي تتعلق بمظاهر الطبيعة، فابتدأ بأساطير الماء والأمطار والآبار، وأوضح السر في تقديس العرب للماء، وذكر أنواع الاستسقاء، وأهم الأساطير التي دارت حول بئر زمزم وبئر الأخسف.

ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن أساطير متعلقة بالنار، وكيف عظم العرب النار، وبيّن أنواعها التي عُرفت عندهم من نار التحالف ونار المهول ونار الحرتين ونار الاستسقاء، وأن النار كانت قرين الكلب والجن والعالم السفلي.

وفي القسم الثالث من الأساطير كان الحديث عن أساطير الجبال والأحجار التي ارتبطت أشد الارتباط بتقديس الحجر والصنم آلهة العرب الجاهليين، وقد جعلوا لكل صنم من أصنامهم أسطورة خاصة به، وكيف تصحبهم في الحروب، وكيف تجير من يلجأ إليها، فذبحوا لها وحلقوا رؤوسهم عندها، وذكر أساطير الخسف لإساف ونائلة، وأسطورة جبل طيء وصنم الفلس.

وجاءت الخاتمة لتعرض أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: الأسطورة، مظاهر الطبيعة، تعظيم النار، الفكر الجاهلي.

Abstract

This research deals with the idea of myths among the ancient pre-Islamic Arabs, and how these myths influenced the pre-Islamic thought, and changed his ideas, beliefs, customs and traditions in his life affairs; these changes included all aspects of his life; therefore, the research first presented the concept of myth, then the research focused on the most important myths related to the manifestations of nature, so it began with the myths of water, rain and wells, and explained the secret of the Arabs' sanctification of water, and mentioned the types of rain-seeking, and the most important myths that revolved around the Zamzam Well and the Al-Akhsaf Well. Then he moved on to talk about myths related to fire, and how the Arabs glorified fire, and explained its types that were known to them, such as Al-tahalof fire, Al-harratain fire, Al-Mahool fire, and the fire of rain-seeking, and that fire was the companion of the dog, the ghost and the underworld. In the third section of myths, the talk was about the myths of mountains and stones that were closely linked to the sanctification of stone and idols, the gods of the pre-Islamic Arabs. They made a special myth for each of their idols, and how it accompanied them in wars, and how it protected those who sought refuge in it, so they slaughtered for it and shaved their heads at it. He mentioned the myths of The Metamorphosis of Isaf and Na'ila, and the myth of Mount Tayye and the idol of al-Fals. The conclusion came to present the most important results reached by this research.

تمهيد

مفهوم الأسطورة:

للأسطورة جوانب متعددة ومتنوعة فهي كالمتاهة العظمى، فنجد الكثير ينطلق في تعريفه لها من جانب، والآخر ينطلق من جانب آخر، فتبدو التعريفات قاصرة أو العكس، فنَجِد البعض يستخدم كلمات فضفاضة إلى حد يفقدها الدِّقة والتشخيص.

يقول سنت أوغسطين "إني أعرف جيدًا ما هي، بشرط ألا يسألني أحد عنها، وإذا ما سئلت وأردت الجواب فسوف يعتريني التلكؤ"[1].

(1) ك. ك. رانفين: الأسطورة، ترجمة، جعفر صادق الخليلي، منشورات عويدات، بيروت، سلسلة زدني علما، ط1، 1981م، ص9.

وقد عبر "رولان بارت" عن نحو من هذا عندما عرفها بقوله: "لا تُحدُّ الأسطورة بموضوع رسالتها، ولكن بالطريقة التي تُعرض بها تلك الرسالة، وللأسطورة حدود شكلية، ولكن ليس لها من حدود من حيث جوهرها(2)، ولهذا يقول يونج: "كل المحاولات التي بذلت لتفسير الأسطورة لم تسهم في فهمها، بل على العكس زادت في الابتعاد عن جوهرها"(3).

من أجل ذلك اتسم تعريف الأسطورة بالزئبقية التي تعود إلى تنوع مواضيعها، والذي أدّى بدوره إلى تنوع تعاريفها، ومن ثمّ انعكس هذا على تنوع المناهج التي تدرسها، ولعل من أهمها المنهجين المجازي والرمزي، فالمجازي يدرس الأسطورة كقصة مجازية تخفي أعمق معاني الثقافة، وأما الرمزي الأسطرة ففيه قصة رمزية تعبر عن فلسفة كاملة لعصرها، لذلك وجب دراسة العصر نفسه لفكّ رمز الأسطورة. والزئبقية في تعريف الأسطورة وغموضها عجزت معاجمنا اللغوية عن إعطائها المدلولات الحقيقية، فالأساطير هي "الأباطيل والأحاديث العجيبة... واحدها إسطار، وإسطير وأسطور، وبالهاء في الثلاثة"(4)، والأساطير هي الأحاديث التي لا نظام لها، وهي جمع سطر من الأسطر التي كتبها الأولون من الأباطيل والأحاديث العجيبة و"سطر تسطيرًا" ألف وأتى بالأساطير، والأسطورة الأقوال المزخرفة المنمقة(5).

ويعرفها مصطفى الشورى بأنها: "بقايا أنباء غامضة تداولتها الأجيال واستوعبتها عقول خضعت لوثنية كلها خرافة(6).

أما الأسطورة من وجهة نظر الغربيين أمثال كارل كيريني الذي يبين أهمية الأسطورة في المجتمع البدائي فهي – عنده– "ليست مجرد حكاية تُحكى، ولكنها حقيقة يعتقد أنها حدثت في أزمان أولية، وأنها لا زالت تُمارس تأثيرها على العالم، وعلى مصائر البشر(7).

---

(2) Roland Barthes. my theologies p. 194-195.

(3) سمية أسعد: الأسطورة فى الأدب الفرنسي المعاصر، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد السادس عشر، العدد الثالث.

(4) مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، الطبعة الثالثة، مادة: سطر.

(5) المسعودي: مروج الذهب، 326/1.

(6) مصطفى الشورى: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص 66.

(7) محمد خليفة حسن أحمد: الأسطورة والتاريخ فى التراث الشرقي، دراسة فى ملحمة جلجامش، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، 1988م، ص 164.

وهذا ما يؤكد عليه "مالينوفسكي" حيث يرى "أن الأسطورة في حقيقتها ليست تعبيرًا تافهًا، ولا تدفقًا عشوائيًا لخيالات عقيمة، ولكنها قوى ثقافية مهمة تشكلت بصورة محكمة"[8].

وقد اختلفوا في فكرة وجود الأساطير عند الجاهليين بين مؤيد ومعارض، والذي لا شك فيه أنه ما من أمة من الأمم إلا ورسخت في أذهان أفرادها أساطير شتى، وقد تختلف سعة هذه الأساطير وامتدادها بين الأمم بحسب بدائية الأمة وتوزيع هذه البدائية على أكبر قدر من أفرادها، واتساع رقعتها في مدد زمنية طويلة. ومما يؤكد على وجود حياة أسطورية عند العرب ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: {قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ}[9]، وقوله أيضًا: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}[10]، فهي تعني خرافات الأقدمين، أما في الأوساط الشعبية فتعني (باطلًا) ولذلك سبب الاستخدام العلمي للكلمة سوءًا في الفهم.

ومن هنا كان الجاهلي يُصرُّ على الاحتفاظ بالطبائع العقلية لأجداده القدامى، فقد جاء في القرآن الكريم: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ}[11]، فالجاهل كان يتصرف لحل قضاياه الوجودية بدوافعه الروحية أكثر من وعيه العقلي، فالعقلية الجاهلية تحقق النظرة الأسطورية التي "تجمع الأشياء والأحياء في وحدة وجودية شاملة حيث يغدو الإنسان فيها لا يتصور عالمه الطبيعي صامتًا، وإنما يتصوره حيًّا مدركًا"[12].

فالعقلية البدائية كانت تعتقد في الأرواح الكامنة في الأشياء وتؤمن بوجود قوي خارقة في الكهوف والآبار والأماكن المهجورة والمظلمة[13] فهي ترى الأرواح حالّة في كل مكان متلبّسة كل جماد[14].

وقد اكتفيت في هذا البحث بعرض ما يتعلق بالأساطير المرتبطة بالطبيعة ومظاهرها، وكيف أثرت هذه الأساطير في الفكر الجاهلي.

أولًا: الماء.

لم يكن التنقل والترحال الذي وُسِمَ به العربي البدائي غير ردّ فعل مباشر لشح المياه وانحباسها وعدم وجودها في أكثر أنحاء الجزيرة العربية، ومن هنا كان له تأثيره على حياة العرب الاجتماعية، فالماء والكلأ هما الهدف الأسمى في

---

(8) Malinowski Bronislaw, magic, science and religion and other Essays, double day so company. Incncw Yayh 1954. p97.

(9) سورة الأنفال، الآية: 31.

(10) سورة الفرقان، الآية: 5.

(11) سورة الزخرف، آية: 22.

(12) عبد المنعم تليمة: مقدمة فى نظرية الأدب، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، 1976م، ص 29.

(13) جواد علي: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، 706/6.

(14) فريدرش ديرلاين: الحكاية الخرافية، نشأتها ومناهج دراستها، ترجمة نبيلة إبراهيم، بيروت، دار القلم، 1973م، ص 75: 78.

Issue N.32- Vol.1 / ISSN:2958-8537

الحياة، فكان فيهما العز والجاه والثراء، فقاتل بعضهم بعضًا من أجل الحصول عليهما، وقطعوا مسافات شاسعة بحثًا عنهما، ولذلك كان من الضروري أن يتوجه الإنسان بالعبادة والشعائر نحو الآلهة المتحكمة في تلك الظاهرة، فإذا انحبس المطر عنهم كانت هناك الشعائر التي يتوجهون بها نحو الآلهة استرضاء لها لترفع غضبها عن البشر، ولذلك فقد اتجه الإنسان البدائي بالتقديس نحو الآبار والعيون واتّخذ من أرباب الأنهار في البلاد التي عُرفت بأنهارها معبودات رئسية يقدسها ويتقرب إليها بالأضاحي، لذلك نرى كثيرًا من الأماكن المقدسة ما قد أقيم في الجزيرة العربية عند الينابيع والأنهار، ومن ذلك أنّهم نصبوا في الجاهلية صنمهم المشهور هُبل عند البئر في جوف الكعبة، ويبدو من النقوش القديمة أن هُبل هذا هو لاسم المحرف للإله الكلداني "بعل" الذى عُرفت ديانته باسم "ديانة البعليم" التي انتشرت في شبه الجزيرة العربية(15)، ولقد سُميت البئر التي نُصب عليها الصنم "هُبل" بالأخشف أو الأخسف، وترجع تسميته بذلك إلى أنَّ الرب الذى يحمي هذه البئر إنما خسف أحد رجال جرهم الذى أراد سرقة محتوياتها من الهبات والنذور(16)

وقد كان لكل بئر أرض وكلأ مخصوص محدد، وقد كانت ذو العرجاء عينًا في ضواحي المدينة، والعرجاء قطعة من الأرض حولها، فكان بعضها له رب يحيمه، وبعضها لا يُعلم له رب، والبئر التي لم يكن لها رب يكون الإله ربها وحاميها، وهذا ما يسمونه بأرض بعل، فهذا الحمى المعيَّن بحدود خمسين ذراعًا حول البئر كان هو هيكل الصنم وحرم الإله العربي القديم(17) وإلى جانب هُبل على البئر في جوف الكعبة نصبت العرب مناة، وكانت للأوس والخزرج من أهل يثرب على ساحل البحر بين مكة والمدينة من ناحية المشَلَّل بُقدَيْد(18). وكذلك اتخذت العرب إسافًا ونائلة على موضع زمزم ينحرون عندهما(19).

وبلغ من قدسية الماء عند العرب أنَّه كان أحد وسائلهم في الاستقسام، فإذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح السبعة عند هُبل، وفيها قدح مليء بالماء(20).

---

(15) Encyc of Religion Vol. 1. Arabs. 82/1 وانظر ابن هشام: السيرة النبوية، ط السقا،

(16) محمد عبد المعيد خان: أساطير العرب قبل الإسلام، ص 102، جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، 252:251/6.

(17) نفسه: ص 102.

(18) ابن هشام: السيرة النبوية، ط السقا، 85/1؛ جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام 246/6، ويبدو أن نصْب العرب مناة على شاطئ البحر إنما كان إعظامًا لإله البحر الذى عرفه الساميون وقدسوه فى هيئة المعبود (يم) الذى دخل فى صراع حاد مع الإله "بعل" إله المطر والخصوبة – والذي انتصر فيه بعل إله الماء العذب والأمطار، كما تروي الأساطير القديمة – (ثناء أنس الوجود: رمز الماء فى الأدب الجاهلي، ص 55).

(19) ابن هشام: السيرة النبوية، ط السقا، 82/1.

(20) جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام 178/5.

- ولكن ما هو سر قدسية الماء عند أعراب الصحراء الجفاة؟

يعدُّ المطر (الماء) في صحراء العربي الكنود العقيمة أغلى من الدُّرِّ وأنفع من العسجد، فهو أجمل ما في حياته وأقساها، فهو يأتي إليه من مصادر غامضة لا يستطيع توجيهه أو السيطرة عليه، فقد يأتي رفيقًا عطوفًا عليه فيكون له نعمة ورحمة، وقد يأتي قاسيًا عنيفًا فيصبح نقمة وعذابًا؛ من أجل ذلك وقف تجاهه موقف التذلل والتضرع والخضوع الممزوج بالرغبة والرهبة حينًا، وبالعشق والوجد أحيانًا أخرى. فالمطر للعربي هو الوجود الشامل؛ وجودٌ له ولنَعمه وماشيته، وهو التجدد والبقاء والخلاص والمحو والتطهير، وهو في القوت ذاته قد يعني الفناء أو الموت. والمطر حدث كوني عظيم تتم ولادته العسِرة بعد طول سهر، وبعد نقب ونصب ومشقة، وبعد طول تَضرُّع وتوسل وأدعية وابتهالات يدرّ الضّرع العظيم بروح الحياة، وبتدفق المطر يحدث انقلابًا وتغيرًا، فُيحي ويُهلك ويُفرِّقُ ويُدمر ويُرعب ويُشرِّد ويُنبت ويُطهر، وقد أبدع الشعراء الجاهليون في وصف هذا الحدث وتصوير حلب الرياح للسحاب حلبًا كما يحلب الأجير النوق برفق وتُؤَدة، يَبُسُّ لها حتى تدر ضروعه. يقول عبيد بن الأبرص:

جونٌ تُكَرْكِرُهُ الصَّبا وَهْنًا وتَمْرِيه خَرِيقُهْ
مَرْيَ العَسِيفِ عِشَارَهُ حَتَّى إذَا دَرَّتْ عُرُوقُه(21)

ويقول عمرو بن قميئة:

مُتَحَلِّبٌ تَهْوِي الجَنُوبُ بِهِ فَتَكَادُ تَعْدِلُهُ وينْجَفِلُ (22)

ولا تخفى علينا الصورة التي رسمها "سحيم عبد بني الحسحاس" حيث صوَّر النوق يصيبها المخاض أثناء ولادة المطر، ويلدن بعد أن تُشَقَّ "السَّابياء" عن رأس الفصيل كما تفتق السماء بالمطر:

له فُرَّقٌ جَوْنٌ يُنَتِّجْنَ حَوْلَهُ يُفَقِّئْنَ بالميثِ الدِّمَاثِ السَّوابِيَا(23)

ونتيجة لرغبة الشعراء الملحَّة لتلقي المطر الذي يُحدثُ الخصب للأرض والنوق، فيبتعد شبح الجوع والمرض والموت، ويعمّ الأمن والسلام والاستقرار، يشبِّه امرؤ القيس البرق في تحركه بتحرك اليدين أو بمصابيح الرهبان، فعندما يهيؤ الراهب المصباح يسقط المطر، فالمطر هنا استجابة لدعوات راهب عظيم، ومن ثم فحركة اليدين ومصابيح الراهب قد أعانا على إحداث ولادة الحدث الكوني، ألا وهو المطر، فالسحاب في أبيات امرئ القيس متراكم يشبه أعلاه الإكليل، يلمع البرق ويتلألأ في أثنائه، يقول امرؤ القيس:

أَحَار تَرَى برقًا كأَنَّ وَمِيضَهُ كَلَمْـعِ اليَدَينِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلِ

---

(21) عبيد بن الأبرص: ديوانه، ص89

(22) عمرو بن قميئة: ديوانه، ص96

(23) سحيم عبد بني الحسحاس: ديوانه، تحقيق: عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، 1986م، ص31

يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ راهبٍ أَهَانَ السَّليطَ في الذُّبَالِ المفَتَّلِ[24]

ومن ثم يضحى نزول المطر تحققًا لأمنيات البدوي التائقة إلى جرعات المزن التي تُحي الزرع وتُسقي الحرث، فتصدّ التقديرات وتَصْدق التنبؤات، فالمطر يجود "شَرَوْرَا (فالسِّتار) ويصيب "جبل يَعار"[25]، ويسفَّ على "الأفلاج ومَخارم سُمْسَمٍ[26]، ويحل بَركُه بأسفل ذي رَيْد"[27] وتجود سواريه "بالجوِّ فَالأَمَرات، فَبِضارجٍ، فقَمِيصَة"[28]، ورَوَّى "ضارجًا، فَذَوَات خَيْمٍ، فَحَزَّة، فالمدافعَ منْ قَنَانِ"[29].

وعندما ينزل المطر يزين الصحراء العارية بوشي عبقري من النَّور والزَّهر والعشب:

وغيثٍ بِدَكْدَاكٍ يزينُ وِهَادَهُ نَباتٌ كَوَشْيِ العَبْقَرِيِّ المخَلَّبِ[30]

وتتحول معه الطبيعة إلى رسمٍ بديع بألوان زاهية كألوان الهوداج والرِّحال، كقول لبيد:

بذي بهجةٍ كَنَّ المِقَانِبُ صَوْبَهُ وزيَّنَهُ أَطْرافُ نَبْتٍ مُشَرَّبِ[31]

ألم يكن من حق العربي إزاء هذا الحدث الحامل للنقيضين، النعمة والنقمة، الخصب والجدب –الاحتفاء به، وتقدير صانعه الذي يعدّ من أهم الشخصيات في المجتمعات القديمة، وصانع المطر عادة من طبقة خاصة من السحرة، يتولَّى أفرادها مهمة السيطرة على الرياح والتحكم في نزول الأمطار مستخدمين أساليبت تستند إلى مبدأ السمر التشاكلي "المحاكاة"[32]، وكان العرب إذا أرادوا أن يسقط المطر قاموا بمحاكاة عملية تجمع سقوطه عن

---

(24) امرؤ القيس: ديوانه، ص 24.

(25) الأصمعيات: ص 26؛ الشعر لخفاف بن ندبة السلمي الذى يقول فيه:

فَجادَ شَرورَا فالسِّتارَ فأصبحتْ يَعارُ له وَالوَادِيانِ بمُوْدِقِ

(26) الطفيل الغنوي: ديوانه، شرح الأصمعي، ص 104.

(27) عبيد بن الأبرص: ديوانه، ص 63.

(28) المفضليات: الأسود بن يعفر، ص 219، حيث يقول:

جَادتْ سَوَارِيهِ وآزَرَ نَبْتَهُ نُفَأٌ منَ الصَّفْرَاءِ والزُّبَّادِ

بالجَوِّ فالأَمَرَاتِ حَوْلَ مُغامِرٍ فَبِضَارجٍ فَقَصِيمَةِ الطُّرَّادِ

(29) عمرو بن معد يكرب الزبيدي: شعره، تحقيق مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1974م، ص 164.

(30) لبيد بن ربيعة: ديوانه، ص 11.

(31) نفسه، ص 11.

(32) والسحر التشاكلي صورة من صور استخدام السحر، مارسه البدائيون عملًا بقانون "الشبيه المنتج للشبيه" عن طريق التحكم فى الأحوال الجوية لضمان توفير مقادير كافية من المطر، وهذا المبدأ هو المبدأ الأول الذى يُعرف "بقانون التشابه"، أما المبدأ الثاني فهو "قانون الاتصال" أو "التلامس" وهو أن الأشياء التى كانت متصلة فى وقت ما، تستمر فى التأثير بعضها فى بعض من بعيد بعد أن تنفصل فيزيقيًا. (جميس فريزر، الغصن الذهبي، الهيئة المصرية العامة، 1971م؛ 104/1"

طريق رش الماء أو بعضه، أو محاكاة عملية تجمّع الغيوم والسحب. أما إذا كانوا يريدون إيقافه وإحداث الجدب، فإنهم يتفادون الاقتراب من الماء، ويعمدون إلى الدفء وإلى النار كي تجفف الرطوبة الزائدة عن الحد(33).

ويذكر جميس فريزر من الرقَى السحرية التي كانت من قبيل هذا السحر التشاكلي في أوربا في أواخر القرن التاسع عشر لاستنزال المطر –أن يُكسى شخص بأوراق الشجر ثم يُصبُّ الماء عليه، وهذا الشخص بلا ريب يمثل الزَّرع، كما أنَّ عادة صبّ الماء على آخر ما يُحْصَد من سنابل يراد منها استنزال المطر على الحقول في السنة التالية(34).

ولأهمية ظاهرة المطر الكونية أتى وصف الشعراء الجاهليين لها تعبيرًا جماعيًا مستقلاً عن وعي الفرد الذاتي، رغبة في الطُّهر والصفاء والنَّقاء حينًا، وتعبيرًا عن حاجات الأرواح العطشى لرحمة السماء وتلبية للشعور القومي والخيال البدوي الجماعي القبلي حينًا آخر، ومن هنا أخذ شعراء الجاهلية في استطلاع المطر، وأرقوا في ترقبه، وعُذِّبوا في انتظاره، وانتَحبوا من أجله، يقول عبيد بن الأبرص:

يا مَنْ لِبَرقٍ أَبِيتُ اللَّيْلَ أَرْقُبُهُ   فى مُكْفَهِرٍّ وفي سَوْدَاءَ مَرْكُومَهْ(35)

ويقول النابغة الذبياني:

أَرَقْتُ وأصْحَابه قعُودٌ بِرَبْوَةٍ   لِبَرْقٍ تَلَألأَ فِي تِهَامَة لَامِعِ(36)

ويقول أبو ذؤيب الهذلي:

أَمِنْكِ بَرْقُ أَبِيتُ اللَّيْلَ أرْقُبُهُ   كأنَّهُ في عِرَاضِ الشَّامِ مِصْباحُ(37)

ويقول الأعشي:

يا مَنْ يَرَى عَارِضًا قَدْ بِتُّ أرْقُبُهُ   كأنَّما البرْقُ في حَافَاتِهِ الشُّعَلُ(38)

ويقول المرقش الأصغر

أَرَّقَنِي اللَّيْلَ بَرْقٌ ناصِبٌ   ولَمْ يُعِنِّي عَلَى ذَاكَ حَمِيمْ(39)

ومن طقوس العرب في الاستسقاء (الاستمطار) استخدامهم النار السحرية طقسًا للاستسقاء، فكانوا إذا تتابعت عليهم الأزمات، وركد عليهم البلاء، واشتد الجدب واحتاجوا إلى الاستمطار، اجتمعوا فجمعوا ما قدروا عليه من

---

(33) نفسه: 107/1.
(34) جميس فريزر: أدونيس، ص 157.
(35) عبيد بن الأبرص: ديوانه، ص 128.
(36) النابغة الذبياني: ديوانه، ص 245.
(37) الهذليون: الديوان، 47/1. وشرح أشعار الهذليين : 167/1
(38) الأعشي: ديوانه، ص 57.
(39) ديوان المرقشين: ص95، والتبريزي: يحي بن على، شرح المفضليات، تحقيق على البجاوى، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة، 1977م، ص 248.

البقر، ثم عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها السَّلَع والعُشَر[40] ثم صعدوا بها في جبل وعر، وأشعلوا فيها النيران، وضجُّوا بالدُّعاء والتَّضرع، فكانوا يرون أن ذلك من أسباب السُّقيا[41] ويعلِّل جواد علي إضرامَ النيران في أذناب البقر بأن ذلك إنما فعلُوه على سبيل التفاؤل، فالنَّار إشارة إلى البرق، والبرق مجلبة المطر[42]، وقد عاب بعض الشعراء فعلهم هذا بقوله:

لا درَّ درُّ أناسٍ خَابَ سَعْيُهُمُ   يَسْتَمْطِرُونَ لَدَى الإعْسَارِ بالعُشَرِ
أَجَاعِلٌ أَنْتَ بيقور مُسلَّعَةً   ذَرِيعَةً لَكَ بَيْنَ اللهِ والمطَرِ[43]

وهناك علاقة عقدها العرب القدماء بين النَّار والمطر، فالنار هي التي تمنح المطر، وقد ارتبط المطر في الحس اللغوي العربي بالنار ارتباطًا دقيقًا، وهذا الارتباط له دلالة رمزية على المعنى الروحي للنار، فسمُّوا المطر وَدْقًا والنار وديقة[44].

ويرجع اعتناء العرب القدماء بالنار وارتباطها بالمطر لكونها المانحة له، والسبب الأول في استنزاله؛ لكونهم يعدونها مُطَهِّرًا قويًا، لأنها تلتهم الجسد الفاني ولا يبقى من الإنسان إلا الروح الإلهية الخالدة[45].

وظاهرة إشعال النيران في أذناب البقر –كما يراها أحد الدارسين- تمثيل لهذه الظاهرة الكونية الطبيعية بكل أحداثها، حيث يُمثِّل الدُّخان تراكم السحب، وألسنة النار تمثل البرق، وهبوط الأبقار يشير إلى التفاؤل نتيجة هذا الطقس، واستجابة للصلاة، والواسطة الإلهية هي النيران والأبقار الوحشية[46].

ولعلاقة النَّار عند العرب بالمطر أو على الأصح بنزوله صوَّر الشعراء الجاهليون إشعال النيران في السحب المتراكمة على هيئة برق يلمع، فأضحى البرق: "كَمِصْبَاحِ الشَّعِيلَةِ في الذُّبَالِ"[47].

"ودَنَا يضيءُ رَبَابُهُ   غَابًا يُضَرِّمُهُ حريقُهُ"[48]

---

(40) انظر لسان العرب مادة (سلع) و (عشر)، وحاشية كتاب النبات والشجر، للأصمعي، تحقيق أوغست هفنز، طبع بيروت، 1908م.

(41) النويري: نهاية الأرب فى فنون الأدب، 109/1، القلقشندي صبح الأعشي، 409/1.

(42) جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، 341/5، الألوسي: بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، 301/2، وكان العرب فى الجاهلية يصلون صلاة الاستسقاء لإله الخصب "ضم".

(43) الألوسي: بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، 302/2.

(44) لسان العرب، مادة (ودق).

(45) جميس فريزر: أودنيس، ص 92؛ ص 119، ص 122؛ ص 125.

(46) على البطل: الصورة الفنية فى الشعر العربي، دار الأندلس، بيروت، 1980م، ص 131.

(47) لبيد بن ربيعة: ديوانه، ص 88.

(48) عبيد بن الأبرص: ديوانه، ص 90.

وعند الأعشى:

"كأنَّمَا البرْقُ في حَافَاتِهِ الشُّعَلُ"[49].

وقد أفصح بعض الشعراء الجاهلين عن ارتباط البرق بالمطر[50] والدلالة الدينية التي تجمعهما، فالمطر يُسْتنزَل بفعل ابتهالات السيِّد الموقَّر المهيب وهو "الراهب المتعبد" أو "الحبْر المتَهَجِّد" لذلك فسناهُ كـ "مصابيح راهب أهان السَّليطَ في الذُّبال المفَتَّل"[51] والبرق "أغرّ كمصباح اليهود دَلُوج"[52]. ونتيجة لما يتسبب عنه انقطاع المطر في الصحراء العطشى، وما لِوطأة القحط والمحل من ذعر ورهبة وخوف وهلع وفزع في النفوس، مما يدفع بالعرب فقرائهم وأغنيائهم إلى تغيير مسار حياتهم، فمن كان فقيرًا حفَّزه الجفاف والجوع للغارة، ومن كان غنيًا سعى للهجرة إلى مكان آخر، وتوجس البشر والذئاب واللصوص حيث تتبدل الحياة من أمن واستقرار إلى حرب طويلة المدى، من أجل ذلك بذل العربي كل ما في وسعه تضرعًا وتوسلاً وبكاءً واسترضاءً لكل من تحكَّم في هذه الظاهرة فكان الاستسقاء عندهم على أنواع؛ أشهرهما: الاستسقاء بالنجوم، والاستسقاء بالموتى.

(1) الاستسقاء بالنجوم: كان من أهم معتقداتهم الجاهلية حيث نسبوا الأمطار والرياح إلى السَّاقط والطَّالع من النجوم، وجعلوها فعلاً للكواكب وحادثًا عنها وأضافوها إليها، فقالوا: مطرنا بنوء كذا، قال ابن سيده: "وإنما جاء حمدهم بعض الأنواء وذمهم بعضًا من قبل مواقع الأمطار التي تكون في أيامها، فأيّ كوكب جاء وقت نوئه، فصادف المطر الذى يكون فيه من الزمان ومن البلد موافقة ونجع، فتبين خيره ونفعه حمدوا ذلك النوء، وأضافوا حمده إلى الكواكب، ونوّهوا به، وإلا يكن ذلك ذمّوه، وسّموا نؤءه به، حتى كان الفعل في ذلك فعل الكواكب، ولما جرَّبوا هذه الأمور في القديم، وطال اختبارهم لها، فوجدوها ثابتة في مراتبها، ألزموا الكواكب ذلك"[53].

والنوء يرتبط في اعتقاد الجاهليين القدماء بفعل الكواكب المؤثرة، فهي التي تصنع السحاب وتُرسل الرياح وتأتي بالمطر، يقول بشر بن أبي خازم:

---

(49) الأعشي: ديوانه، ص 57.

(50) والاستدلالُ على المطر بأحوال البرق والسحب والرياح علمٌ يُسمَّى "علم نزول الغيث" يقول طاش كبري زاده: وهو علم يتعرف به كيفية الاستدلال على المطر بأحوال البروق والسحب والرياح، وأخصّ الناس بهذا العلم العربي، لاشتداء حاجتهم إلى الغيوث التي بها حصول معاشهم من السقي والرَّعي، ودليله السحب بحسب مواضعها أو رقَّتها وكثافتها أو ألوانها، وكيفية أحوال الرِّياح والبروق، طاش كبرى زاده مفتاح السعادة ومصباح السيادة، 356/1.

(51) امرؤ القيس: ديوانه، ص 24.

(52) ديوان الهذليين: 52/1، وشرح أشعار الهذليين: 128/1.

(53) ابن سيده: كتاب الأنواء، ضمن كتاب المخصص، طبع المكتب التجاري، بيروت (د. ت)، ص 82.

جَادَتْ لَهُ الدَّلْوُ والشِّعْرَى وَنَوْءُهُمَا بِكُلِّ أَسْحَمَ دانِي الوَدْقِ مُرْتَجِفِ[54]

وعن اعتقاد العرب القدماء وإيمانهم بأن الأمطار من صنع الأنواء[55] وارتباط ذلك بعبادة الكواكب التي كانت تمثل عندهم جزءًا أساسيًا من ذلك، ما جاء في الحديث النبوي الشريف: "ثلاث من أمور الجاهلية: الطعن في الأنساب، والنياحة، والاستسقاء بالأنواء"[56].

(2) الاستسقاء بالموتى: مما اعتقده الجاهليون القدماء اعتقادهم أنَّ "الهامة" و "الصَّدى" التي تخرج من رأس القتيل لا تهدأ ولا تسكن، ولا تطمئن روح قتيلها حتى تُسقَى من دم القاتل؛ من أجل ذلك سقت العرب القبور بدماء الخيل والنوق التي كانوا يعقرونها على قبور موتاهم ليركبوها يوم الحشر، ومن طقوس استسقائهم فيما يتعلق بالموتى استسقاؤهم بعظام موتاهم، وقد آمن العرب بأن الأمطار تسقط بواسطة طقوس سحرية تُجْري على عظام الموتى، وخاصةً عظام الأمراء الذين كثيرًا ما يُنْتَظر منهم أن يُنزلوا المطر وهم أحياء[57].

يقول ابن قتيبة[58]: إن عظام (سليمان بن ربيعة الباهلي) كانت عند أهل بلنجر في تابوت، إذا احتبس عليهم المطر، أخرجوها فاستسقوا بها فَسُقُوا، قال عبد الرحمن بن جمانة الباهلي في قبر (سلمان) وقبر (قتيبة بن مسلم الباهلي):

إنَّ لَنَا قَبْرَيْنِ: قَبْرٍ بلنجر وَقَبْرًا بِصِينِ آستان يَا لَكَ مِنْ قَبْرِ
فأما الذي بِالصِّينِ عَمَّت فُتُوحُه وسلمانُ يستسقى بها سيل القطر[59]

ويقول النابغة الذبياني في رثاء النعمان بن الحارث بن أبي شمَّر الغساني:

---

(54) بشر بن أبي خازم: ديوانه، ص 157.

(55) من الأنواء المحمودة بالمطر: الشرطان، والثريا، والشعريان، والمرزمان، والسماكان، والزباني، والإكليل، والقلب، والسعود الأربعة: الذابح وبلع والأخبية والسعود، والحوت والجبهة (ابن قتيبة: الأنواء في مواسم العرب، طبع حيدر آبار، الدكن، الهند، 1956م، ص 32 وما بعدها، ابن الأجدابي: الأزمنة والأنواء، تحقيق عزة حسن، دمشق، 1964م، 254/2 وما بعدها، وقد تُحمد الأنواء لغزارة أمطارها ولطيب هوائها ولكثرة خيراتها وثمارها، وقد تذم بعض الأنواء لعقمها وشدة بردها وقلة مطرها، فنوءُ الدبران أو المجدح مذموم، ويُسمَّى أيضًا "الحادي" و "الراعي" يقول الأسود بن يعفر النهشلي:
وُلِدْتُ بِحَادِي النَّجْمِ يتلو قَرِينَهُ وبِالقَلْبِ قَلْبُ العَقْرَبِ المُتَوَقِّدِ
وفى المثل "إذا طلعت الدبران، يبست العذران، وتوقَّدت الحزان وكرهت النيران" ومن شر الأنواء: البطين والهقعة والهذعة، أو (الجوزاء)، والدبران أو (الحادي)، والزُّباني، والإكليل، والقلب والشَّوْلة، وهي فى برج "العقرب"، الأسود بن يعفر النهشلي: ديوانه، تحقيق نوري القيسي، بغداد، 1970م، ص 22.

(56) محد السفاريني الحنبلي: ثلاثيات مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي، دمشق، 1380هـ، 933/2، ابن الأجدابي: الأزمنة والأنواء، 136/1.

(57) جميس فريزر: أدونيس: دار الصراع الفكري، بيروت، 1957م، ص 23.

(58) ابن قتيبة: المعارف: تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف بمصر، 1969م، ص 433؛ الجاحظ: البرصان والعرجان، تحقيق محمد مرسي الخولي، ص 209.

(59) نفسه: ص 209.

سَقَى الغَيْثُ قَبْرًا بَيْنَ بُصْرَى وَجَاسِمٍ   بِغَيْثٍ مِنَ الوَسْمِيِّ قَطْرٌ وَوَابِلُ
وَلَا زَالَ رَيْحَـــانٌ، ومِسْكٌ وَعَنْبَرٌ   عَلَى مُنْتَهَاهُ دِيمَةٌ ثُمَّ هَاطِلُ(60)

وقال أوس بن حجر في رثاء فَضالة بن كلدة:

لا زَالَ مِسكٌ ورَيْحانٌ لَهُ أَرَجٌ   عَلَى صَدَاكَ بِصَافِي اللَّونِ سَلْسَالِ
يَسْقِي صَدَاكَ وَمُمْسَاهُ ومُصْبَحُهُ   رِفْهًا ورَمْسُكَ مَحْفوفٌ بِأَظْلَالِ(61)

وقال أحدهم يرثي امرأته:

سَقَى جَدَثًا تضَمَّنَ أُمَّ عَمْرٍو   بِنَخْلَةَ مَا اسْتَهَلَّ مِنَ الغَمَامِ
وَمَا لِلأَرْضِ أَسْتَسْقِي ولَكِنْ   لِأَصْداءٍ أَقَمْنَ بِهَا وَهَامِ(62)

وفي سـقيا القبور في اعتقاد أهل الجاهلية إعادة للحياة فيها؛ لأن الماء في الحس العربي يعني الحياة والخلاص والطهر والرحمة والبعث وطيب العيش، ومن هنا كان نزول المطر حياةً للقوم، وقديمًا كانت العرب تقول: أحيا القوم على معنى حسُنت حال مواشيهم، وحي القوم في أنفسهم وأحيوا في دوابهم وماشيتهم"(63).

وعن سـقيا القبور والدعاء لأطلال المحبوبة يقول أنور أبو سـويلم "ولا نسـتبعد أن يكون الدعاء بسـقيا الأطلال والقبور بقايا تراث ديني قديم كان أصـلاً "طقسًـا سـحريًا" يُمَارَسْ على عظام الموتى، التي اسـتخدمها العرب في استدعاء المطر، ومن ثَمّ ارتبط نزول المطر بالأرض الخراب، والقبور الموحشة"(64).

---

(60) النابغة: ديوانه، ص 121.

(61) أوس بن حجر: ديوانه، ص 105-106.

(62) عبد الكريم النهشـلي القيرواني: الممتع فى علم الشـعر وعمله، تحقيق: منجي الكعبي، دارالعربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1978م، ص264، والبيت الأول في طبعة محمد زغلول سلام، سَقَى حدباء تُضْمر، ص153، وفي سقيا القبر، تقول الخنساء فى رثاء أخيها صخر:

سقى الإلهُ ضريحًا جَنَّ أعظُمَهُ وروحَهُ بغزير المزْن هُطَّال [أنيس الجلساء: 219]
سقى جَدّثًا، أَكْنَافُ غَمْرَة دُونَهُ مِنَ الغَيْثِ دِيمَاتُ الرَّبِيعِ وَوَابِلُهُ [أنيس الجلساء: 227]
أَسَقَى الإِلهُ ضريحَـهُ مِنْ صَوْبِ دَائِمَةِ الرِّهَائِمْ [أنيس الجلساء: 237]
سَقَى اللهُ أَرْضًا أَصْبَحَتْ قَدْ حَوتْهُما مِنَ المسْتَهِلَّاتِ السَّحَابَ الغَوَادِيَا [أنيس الجلساء: ص267]
سَقْيًا لِقَبْرِكَ مِنْ قَبْرٍ وَلَا بَرِحَتْ جَوْدُ الرَّوَاعِدِ تَسْقِيهِ وتَحْتَلِبُ [أنيس الجلساء: ص15]
رِبِيعُ هُلَّاكٍ وَمَأْوَى نَـدَىً حِينَ يَخَافُ النَّاسُ قَحْطَ القِطَارْ
أَسَقَى بِلَادًا ضُمِّنَتْ قَبْـرَهُ صَوْبُ مَرَابِيعِ الغُيُوثِ السَّوَارْ
وَمَا سُـؤَالِي ذَاكَ إِلَّا لِكَيْ يُسْقَاه هام بِالرَّوِي فِي القِفَارْ [أنيس الجلساء: ص129-130]

(63) لطفي عبد البديع: عبقرية الإنسان والحيوان والنبات، ص 181.

(64) أنور أبو سويلم: المطر فى الشعر الجاهلي، ص 85.

ولأهمية المطر عند العرب فإن انقطاعه لاقاه حزن ونواح من تلك النســاء النائحات الملثمات اللاتي بلّ الدمع أو المطر أثوابهنّ الرّثّة، ويظهر أيضًا في صـورة النوق المجدبة التي عُزلت عن أولادها كي لا تهزل وتضـعف، فهي لذلك تضجّ وتخور وتستغيث وتتوسّل، أو في صورة أولئك الحبْشان السمرة الذين يريدون أن يستنزلوا المطر عُنْوة بقسِّيهم وجرابهم(65).

وكما طالعتنا صورة المطر المضيئة مطهِّرًا للأرض ومغيرًا لمعالمها، ساحقًا للشجر من قُلل الجبال، محطًا للوحوش من الذُّرى، كاسيًا الموجودات رونقًا وحياة وشبابًا وكاسيًا الإنسان صفاءً ونقاءً وطهرًا، فإن هذه الصورة لا تلزم أوقات الدنيا. فالمطر قد يأتي عنيفًا رهيبًا، وحينما يطلّ بغضـــبه وعنفوانه يحيل الكون إلى طوفان مدمر وســيولٍ عارمة، فينقلب الكون حينها مدمرًا مهدمًا مخربًا، لذلك فكما مارس العرب طقوسًا سحرية لاستنزال المطر مارسوا طقوسًا أخرى لمنع سقوطه؛ من ذلك ما ذكره المقريزي من شيوع طقس سحري لمنع سقوط المطر في بعض قبائل البدو في (حضر موت) وهي قبيلة (القمر)، فقد كان الناس هناك يقطعون غصن شجرة (معينة) في الصحراء، ويشعلون فيه النار، ثم يرشّون الماء بعد ذلك على الخشب المشتعل، فيقل هبوط المطر حتى يتوقف تمامًا مثلما تختفي المياه التي ترش على الخشب المتوهج(66).

وروى القزويني عن مسعر بن مهلهل، قال: أهل الري إذا دامت عليهم الأمطار، وتأذّوا منها صَبُّوا لبن الماعز على النار، فانقطعت، قال: جربت هذا مرارًا فوجدته صحيحًا(67).

ولما كان الماء رمزًا من رموز البشرية الحبلى بالدلالات، فلا غرابة أنْ تُحاكَى الشعوب القديمة في نسج الأساطير من بعدهم، فيظل النموذج الأصـلي الأول يغزو الخيال والوجدان لِما له من طاقة إيحائية لا ينضـب لها معين. وعلاوة على ذلك يتمتع الماء بقدسيته عند إنسان الحضارات القديمة في الصورة التي يطالعنا بها في أساطير الخلق والتكوين حينًا وفي أسـاطير الكون حينًا آخر، فمن أسـاطير الفرق الشـيعية عن هذا الإنسـان أن المغيرية من غلاة الشـيعة أصـحاب المغيرة بن سـعيد العجلي – يرَون أن الباري لما رأى أعمال العباد في كفه "غضـب من المعاصـي فعرق، فاجتمع من عرقه بحران، أحدهما: مالح، والآخر: عذب، والمالح مظلم والعذب منير" والخلق كلهم في معتقدهم من البحرين، فالكفار من البحر المالح المظلم والمؤمنون من البحر النّيِّر العذب"(68)، وكما أن كلاً من الكفار والمؤمنين

(65) نفسه: ص 54.

(66) فريزر: الغصن الذهبي، 254/1.

(67) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص 345.

(68) الأشعري: مقالات الإسلاميين، اختلاف المصلين، مصر 1389هـ-1969م، 6/1؛ الشهر ستاني: الملل والنحل، 176/1-177؛ البغدادي (عبد القاهر): الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1402هـ-1982م، ص 227-228.

قد خلقا من البحرين المالح والعذب، فإن أصل السرور والحزن لدى بني آدم هو أنَّ أبا البشر ظلَّ عند خلقه "ملقىً أربعين سنة يُمطَر عليه مطر الحزن، ثم أمطر عليه مطر السرور سنة واحدة، فلذلك كثرت الهموم في أولاده"(69).

– الأساطير المتعلقة بالآبار:

أ– بئر زمزم:

يحمل لنا ابن إسحاق قصة حفر بئر زمزم على يد عبد المطلب رابطًا إياها بعهد إبراهيم وإسماعيل: "بينما عبد المطلب بن هاشم نائم في الحِجْر إذ أُتِي(70) فأُمِر بحفر زمزم، وهي دفين بين صنمي قريش إساف ونائلة عند منحر قريش. وكانت جرهم دفنتها حين ظعنوا من مكة، وهي بئر إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام التي سقاه الله حين ظمىء وهو صغير، فالتمست له أمه ماءً فلم تجده، فقامت إلى الصفا تدعو الله وتستغيثه لإسماعيل، ثم أتت المروة ففعلت مثل ذلك، وبعث الله جبريل عليه السلام فهمز له بعقبه في الأرض، فظهر الماء، وسمعت أمه أصوات السباع، فخافت عليه، فجاءت تشتد نحوه فوجدته يفحص بيده عن الماء من تحت خده ويشرب فجعلته حسيّا"(71).

وتحمل هذه الرواية العديد من الدلالات الرمزية التي تجعل من الماء أساسًا تقوم عليه الحياة البدوية الرعوية في ذلك المجتمع البدائي ومن هذه الدلالات:

1) اتصال الآبار أمثال زمزم والأخسف(72) وغيرها بجدٍّ أعلى أو بأحد الأسلاف الأقربين، فيغدوا آدم أو إبراهيم أو إسماعيل أو عبد المطلب رمزًا من رموز الأب والجد واهب الحياة، فنشأ عن ذلك قيام العديد من النزاعات والحروب التي كانت تشب بسبب بئر أوعين ماء، حيث قالت قريش لعبد المطلب حينما علمت بذلك "يا عبد المطلب إنها من آثار أبينا إسماعيل، وإنَّ لنا فيها حقًّا، فأشركنا فيها. فقال: ما أنا بفاعل، إن هذا شيء خُصصت به دونكم وأُعطِيته من بينكم"(73)

---

(69) الثعلبي النيسابوري (أبو اسحق أحمد بن محمد): كتاب عرائس المجالس فى قصص الأنبياء، ط المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان (د. ت)، ص 24-25.

(70) وقد أورد الثعلبي فى عرائس المجالس هذه الصة وهي رواية امعة مفصلّة، وقد ذكر مجيء الرؤيا لعبد المطلب فى منامه شعرًا كأن قائلاً يقول له:

يا أُ]هَا المدْلجُ احْفِرْ زَمْزَمْ إنَّكَ إنْ حَفَرْتَهَا لَمْ تَنْدَمْ

وهي تراثٌ من أبيكَ الأعظَمْ تسقي الحجيجَ حَافِلاً لَمْ يَنْقَمْ

(71) الأزرقي: أخبار مكة 545/1-546.

(72) يأتي ذكر لاحقًا بعد بئر زمزم.

(73) الثعلبي: عرائس المجالس، ص 73: 75؛ وانظر: أخبار مكة: ص552؛ وابن سعد: الطبقات الكبرى 83/1.

2) الموقع والجوار الذي يقع فيه ماء زمزم، فقد كانت لها علاقة بالكعبة وتعظيمها، ولا سيما وهي تقع في مكان يبعد حوالي ثمانية عشر مترًا من الركن، أي الحجر الأسود.

3) عندما علمت قريش بخبر مَن جاء عبد المطلب في المنام، وأمره أن يحفر زمزم عند قرية النمل، حيث ينقر الغراب الأعصم، حسدته على ذلك؛ لأنهم أُخبروا أن جرهمًا لما سكنت مكة أودعت في زمزم أموالاً وأسلحة للمصطفى "صلى الله عليه وسلم" لما أخبرت أن الله تعالى باعث في هذه القرية نبيًا، من صفته وحاله كيت وكيت، ولم يكونوا عرفوا موضعها.

4) موضعها عند الوثنيْن إساف ونائلة اللذين كانت قريش تعبدهما وتنحر عندهما.

ب- بئر الأخسف أو الأخشف: الخسيف كما يعرفه ابن الأعرابي هو البئر تحفر في حجارة فلا ينقطع ماؤها كثرة[74] ويذكر الأزرقي بأنها الجب العميق الذى في الكعبة على يمين من دخلها وهو الذى كانوا يلقون فيه ما يهدى إلى الكعبة من حلي أو ذهب أو فضة أو طيب أو غيرها[75].

كانت بئر الأخشف هي الأخرى بئرًا مقدسة عند الجاهلين حيث كان موضعها داخل البيت العتيق مثلما كانت زمزم مقدسة لوقوعها عند صنمي قريش إساف ونائلة، وكان انتهاكها يعد انتهاكًا لحرمة البيت العتيق، ولقداستها يذكر الإخباريون "أن للبئر حارسًا بعثه الله تعالى ليحرسها، وهو ثعبان سكن الجب (البئر) أكثر من خمسمائة سنة (مدة جرهم فخزاعة فقريش) لم يفارقها إلا بعد أن جددت قريش بناء البيت ثم أرسلت إليه العناية الإلهية عُقابًا اختطفه، وطار به إلى جبل أجياد"[76].

وعلى ذلك فالماء كما يصفه الثعلبي هو ماء الحياة في أصلاب الآباء والأجداد ووسيلة التجدد والخلود تُبذل من أجله الحياة قربانًا ويكون الرحيل في طلبه[77].

ثانيًا: الأساطير ذات الصلة بالنار:

للنار هي الأخرى مكانة مرموقة في المعتقدات الجاهلية قديمًا لاعتقادهم أنّ فيها قوة سحرية لذلك أوقدوها في الحلف المقدس، وأشهروا بها الغادرين، وربما جاءت عبادتهم للأصنام الحجرية؛ لأن النَّار لا تقدر على إحراقها وإفنائها.

---

(74) الأعراب (أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي): كتاب البئر، تحقيق د. رمضان عبد التواب، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1990م، ص 56.

(75) الأزرقي: أخبار مكة، 187/1

(76) نفسه: 346/1.

(77) الثعلبي: عرائس المجالس، ص 193.

وكانت النار معظمة عند بني إسرائيل، حيث جعلها الله تعالى تأكل القربان، وتدل على إخلاص المتقرِّب وفساد نية المدْغِل، وحيث قال الله لهم: "لا تُطْفِئُو النَّار مِنْ بيوتي" ولذلك لا تجد الكنائس والبيع أبدًا إلا وفيها المصابيح تزهر ليلاً ونهارًا، حتى نسخ الإسلام ذلك وأمرنا بإطفاء النِّيران، إلا بقدر الحاجة. وعن جابر بن عبد الله، قال: قال لنا رسول الله "صلى الله عليه وسلم" "أغْلِقُوا أبوابكم، وأَوْكوا أسقيتكم وخَمِّروا آنيتكم، وأطفئوا سُرُجَكم، فإن الشيطان لا يفتح غَلَقًا، ولا يَحُلُّ وِكاءً، ولا يكشفُ غِطاءً. وإن الفويسقة تضرِّم البيت على أهله، وكُفُّوا مواشيَكم وأهليكم حين تغربُ الشمس، حتى تذهبَ فحمةُ العشاء"(78).

أما عن العرب وعبادتهم لها فيذكر الألوسي أنَّ أشتاتًا من العرب عبدوها، وربمَّا سرى إليهم ذلك من الفرس والمجوس(79) ولذلك يفسر البيروني (عيد أفريجكان) الفارسية (بعيد صب الماء) وذلك لاستسقائهم بالنار(80).

وقد عبد بعض العرب (تميم وغيرها) النار بطقوس خاصة، فهم يحفرون أخدودًا مربعًا في الأرض، ويضربون فيه النار، ثم يطرحون فيها الطعام والشراب واللباس والجواهر تقربًا إليها وحرِّموا إلقاء النفوس فيها(81).

وكانت الوثنية الفينيقية تُقدِّم الضحايا البشرية للنار، وقد يقدمون أعزّ أبنائهم قرابين تلتهمهم نار الآلهة(82).

ويرجع زمن عبادة النَّار إلى عهد قابيل، حيث تروي بعض الأساطير أنَّه لما قتَل قابيل هابيل هرب من أبيه آدم، فأتاه إبليس وقال له: إن هابيل إنما قُبِل قربانه وأكلته النار؛ لأنه كان يخدمها ويعبدها، فانصب أنت نارًا تكون لك ولعقبك، فبنَى بيت نار، فهو أول من نصب النار وعبدها(83).

وترجع عبادة العرب النار وتقديسها إلى عدة أمور منها:

- عُبَّادها يفضلونها على التراب فيعظمونها، وقد أشار إلى ذلك بشار بن برد بقوله:

الأَرْضُ سَافِلَةٌ سَوْداءُ مُظلمَةٌ   والنَّارُ مَعْبُودَةٌ مُذْ كَانَتْ النّار(84)

- والنار عندهم سماوية عُلْوية؛ لأنَّ النار فوق الأرض، والهواء فوق الماء، والنار فوق الهواء(85).

---

(78) الحيوان: 5/121- 122. والحديث في: (مالك بن أنس، ت: 179هـ): الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي، حققه وخرج أحاديثه: بشار عواد معروف، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1417هـ-1997م،

(79) الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/233.

(80) البيروني: الآثار الباقية من القرون الخالية، طبع ليبزج، 1923م، ص 228.

(81) النويري: نهاية الأرب، 1/99.

(82) أمين مدني: التاريخ العربي وبدايته، دار المعارف بمصر، 1964م، ص 358.

(83) الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/233؛ النويري: نهاية الأرب 1/98.

(84) الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/234

(85) الجاحظ: الحيوان 5/94.

ويذكر النويري أنَّ أهل الهند عبدوها لما رأوْها أعظم العناصر جرْمًا وأوسعها حيزًا، وأعلاها مكانًا، وأشرفها جوهرًا، وأنورها ضياءً وإشراقًا، وألطفها جسمًا وكيانًا، وأن الاحتياج إليها أكثر من الاحتياج إلى سائر الطبائع، ولا نور في العالم إلا بها، ولا نمو ولا انعقاد إلا بممازجها[86] والطين لا يســـمو سموّ النار، فهذا أبو نواس يوازن بينهما، فيرى أنَّ آدم من تراب وإبليس من نار، كقوله:

إبْلِيسُ منْ نارٍ وآدَمُ طِينَةٌ   والطِّينُ لَا يَسْمُو سُمُوَّ النَّار[87]

● أنَّ الله تعالى امْتنَّ بها على أهل الأرض من وجهين:

1- قوله عز وجل { الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ } (يس: 80) فجعلها من أعظم الماعون معونةً[88]، وأخفها مؤُونة[89].

2- ومن ذلك قوله تعالى: { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ } (الرحمن: 35) [90]، فالوعيد الصـــادق إذا كان في غاية الزجر عما يطغيه ويُرْديه فهو من النِّعم الســـابقة والآلاء العظام، وكذلك نقول في خلق جهنم: إنها نعمة عظيمة، ومنَّة جليلة، إذا كان زاجرًا عن نفســـه ناهيًا، وإلى الجنة داعيًا، فأما الوقوع فيها فما يُشَكّ أنه البلاء العظيم[91].

● عبد العرب النار لأنهم رأوا فيها قوةً وإدراكًا، ولهذا فقد ميزوا بين نوعين منها: نار التحالف ونار المهول، فأما نار التحالف: فكانوا لا يعقدون حلفهم إلا عليها، يطرحون فيها الملح والكبريت، وقال أبو عبيدة: "كانوا في الجاهلية الأولى إذا تحالفوا وتعاهدوا، أوقدوا نارًا ودنَوا منها حتى تكاد تحرقهم، وعدَّدوا منافع النار ودعوا على ناقض تلك اليمين، والثالث لذلك العهد، بحرمان تلك المنافع، ويتصـــافحون عندها، ويقولون: الدم الدم، والهدم الهدم، والمعنى: دماؤنا دماؤكم وهدمنا هدمكم، والهدم رسم البناء المهدوم، أي فما هُدم لكم من بناء أو شأن فقد هُدم لنا، وما أُريق لكم من دم فقد أُريق لنا، يلزمنا من نصرتكم ما يلزمنا من نصرة أنفسنا"[92].

ويُسمُّون الرجل القيم بأمر تلك النار "المهول" وقد ذكرته الشعراء كما في قول الكميت:

هُمُو خوَّفونِي بالعَمَى هُوَّةِ الرَّدَى   كَمَا شَبَّ نَارَ الحَالِفِينَ المهَوَّل[93]

---

(86) النويري: نهاية الأرب 99/1.

(87) أبو نواس: ديوانه، تحقيق: وليم بن الورد، جريف سفالد، 1861م، ص23

(88) الماعون الأكبر: الماء والنار، ثم الكلأ والملح (انظر الجاحظ: الحيوان 97/5).

(89) الجاحظ: الحيوان 97/5.

(90) ومن أمثالهم: فى كلِّ شجرٍ نار، واستمجد المرْخُ والعفار (الثعالبي: ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب، ص 574).

(91) النويري: 103/1.

(92) محمود سليم الحوت: فى طريق الميثولوجيا عند العرب، ص 117

(93) النويري: نهاية الأرب، 103/1؛ والثعالبي: ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب، ص 577.

وقال أوس بن حجر:

إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ الشَّمْسُ صَدَّ بِوَجْهِهِ   كما صَدَّ عنْ نارِ المهَوِّلِ حالِفُ(94)

وقد عرفت نار المهول هذه في اليمن وكانت دائمة الاستعار –ولها سدنة يقومون بأخذ اليمين من الحالف، ويفهم من هذا الوصف لهذه النار أنَّ الموضوع لم يكن مجرد حلفٍ ويمين، وإنَّما هو رأيٌ وعقيدة، وأنَّ الذين كانوا يحلفون بها كانوا يعتقدون بوجود قدرة في هذه النار، وأنها تُميز بين الأشياء وتعرف الحق والباطل، ولهذا هابها أهل الباطل فلم يحلفوا بها زورًا(95) ومن ثَمّ يكون إشعال النيران في الأبقار المسلعة أو فوق جبل مثل المزدلفة(96) عند العرب هي طقوس تزجى المعبود السماوي القمر، ولم يكن الغرض منها الري والغيث.

ومما ذكره أصحاب التواريخ: "وكان باليمن فيما زعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه، تأكل الظالم ولا تضرّ المظلوم(97).

ومن نيرانهم أيضًا نار الحرتين وهي أحفل نيران العرب بالخرافات، وقد أطفأها خالد بن سنان(98)، وهي في بلاد عبس، زعموا أنه كان يخرج منهم عنق فسيح مسافة ثلاثة أو أربعة أميال، لا تمر بشيء إلا أحرقته... إلى أن كان من أمْر خالد بن سنان ما كان، حيث أخذ من كل بطن من بني عبس رجلاً وخرج بهم نحوها، وقد خرج منها عنق كأنه عنق بعير، وأحاط بهم فقالوا: هلكت والله أشياخ بني عبس آخر الدهر، فقال خالد: كلا، وجعل يضرب ذلك العنق ويقول: "بَدًا بَدًا، كل هدي الله يؤدى! أنا عبد الله خالد بن سنان" فما زال يضربه حتى رجع وهو يتبعه، والقوم معه كأنه ثعبان يتملك حجارة الحرة حتى انتهى إلى قليب، فانساب فيه فدخل عليه خالد، فقال ابن عم له: لا أرى خالدًا يخرج إليكم أبدًا... فخرج خالد ينطف عرقًا، وهو يقول: زعم ابن راعية المعْزى أني لا أخرج، فقيل لهم: بنو راعية المعزى إلى الآن.

وفي هذه النار يقول الشاعر (خليد العبسي):

---

(94) أوس بن حجر: ديوانه، ص69، والثعالبي: ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب، ص 577.

(95) جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام 365/5.

(96) محمد عبد المعيد خان: أساطير العرب قبل الإسلام، ص 133

(97) ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 166/2. وابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1415هـ-1995م، 322/1.

(98) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ 291/1، والقصة مفصلة فيه.

كَنَارِ الحَرَّتَيْنِ لَهَا زَفِيرٌ تُصِمُّ مَسامِعَ الرَّجُلِ السَّمِيعِ(99)

ويضـيـف الجاحظ والثعالبي على هذه القصـة أنَّ خالد بن سـنان لما حضـرته الوفاة، قال لقومه: إذا أنا مُتُّ ثم دفنتموني، فاحضـروني بعد ثلاثٍ؛ فإنكم تَرَوْنَ عَيرًا أبتر يطوفُ بقبري، فإذا رأيتم ذلك فانبشـوني، فإني أخبركُم بما هو كائن إلى يوم القيامة، فاجتمعوا لذلك في اليوم الثالث، فلَّما رأوا العير وذهبوا ينبشـونه، اختلفوا، فصـاروا فريقين، وابنُهُ عبدُ الله في الفِرقة التي أَبَتْ أنْ تنبشـه، وهو يقول: أفْعَلُ إنِّي إذن أُدْعَى ابن المنبوش! فتركوه. ويعلِّق الجاحظ على هذه الأسـطورة بقوله: "والمتكلمون لا يؤمنون بهذا ويزعمون أنَّ خالدًا هذا كان أعرابيًا وبَرِيًّا مِنْ أهل شَـرْجٍ وناظِرَة، ولم يبعث الله نبيًا قطُّ من الأعراب، ولا من الغدَّادين أهلِ الوبر، وإنَّما يبعثهم من أهل القرى، وسُكَّانِ المدن(100).

وفي هذه القصة دلالات أسطورية منها أن إخماد النيران عند العرب من أعمال البطولة، وهذا ما جاء من خالد بن سـنان وفعاليته للنار، وفى الخبر الأخير من القصـة وعن ما حكاه خالد عن وفاته، وحال قبره بعد مماته ما يفيد أنه كاهن أو نبي ظهر فيما يسمى بالفترة –بين المسيحية والإسلام– "وعن نبوته أنه لما قدمت ابنته على النبي "صلى الله عليه وسـلم"، بسـط لها رداءَهُ وقال: هذه ابنة نبيٍّ ضـيعَهُ قومُهُ، قال: وسَمِعَتْ سـورة { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } (الصمد: 1)، فقالت: قد كان أبي يتلو هذه السورة"(101).

ويذكرون أنه: "جعل يضـرب النار ويقول: "بدًا بدًا كل هدى الله مؤدى، حتى عادت من حيث جاءت وخرج يتبعها حتى ألجأها في بئر في وسـط الحرة منها تخرج النار، فانحدر فيها خالد وفي يده درة، فإذا هو بكلاب تحتها خرصهن بالحجارة، وضرب النار حتى أطفأها الله على يده، ومعهم ابن عم لهم، فجعل يقول: هلك خالد، فخرج وعليه بردان ينطفان من العرق، وهو يقول: كذب ابن راعية المعزي، لأخرجن منها وثيابي تندي، فسُـمِّى بنو ذلك الرجل ببني راعية المعزى إلى اليوم(102).

والكلاب ولاسيما السود منها، كما في أسطورة الزهرة والمرأة التي ذهبت إلى بابل على كلب أسود مع المرأة العجوز طمعًا في مقابلة زوجها، هي من الجن في بعض المعتقدات عند العرب، مثلما هي واسطة بين العالم الأرضي وعالم ما تحت الأرض(103).

---

(99) الحيوان 476/4؛ 478، الثعالبي: ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب، ص 573؛ النويري: نهاية الأرب 105/1-106؛ وانظر القلقشندي: صبح الأعشى: 409/1.

(100) الحيوان: 477/4، 478.

(101) الحيوان: 477/4؛ الثعالبي: ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب، 574.

(102) الديار بكري: تاريخ الخميس 199/1.

(103) محمد عجينة: موسوعة أساطير العرب، ص 269.

وعلى هذا تكون النار برمزيتها الأسطورية قرين الكلب والجن والعالم السفلي، وتتمثل بطولة خالد بن سنان العبسي في انتصاره عليها.

وهناك نار الاستسقاء:

كانت الجاهلية الأولى إذا تتابعت عليهم الأزمات، واشتدّ الجدْب، واحتاجوا إلى الأمطار، جمعوا لها بقرًا معلقة في أذنابها وعراقيبها السَّلع والعُشر، ويصعدون بها إلى جبل وعر، ويشعلون فيها النَّار، ويضجُّون بالدعاء والتضرع، وكانوا يرون ذلك من الأسباب المتوصَّل بها إلى نزول الغيث، يقول أمية بن أبي الصلت:

وَيَسُوقُونَ بَاقِرَ السَّهْلِ لِلطَّوْ دِ مَهَازِيلَ خَشْيَةَ أَنْ تَبُورَا
عَاقِدِينَ فِي بُكر الأَذْ نَاب مِنْهَا، لِكَي تَهِيجَ البحُورَا
سَلَعٌ مَا ومِثْلهُ عُشر مَا عائِلٌ مَا وَعَالتِ البَيْقُورَا(104)

وقد تأتى تقديسهم للنار وعبادتهم لها من أنهم كانوا يوقدونها للملدوغ والمجروح، ومَن عضَّه الكلب حتى لا يناموا فيشتد بهم الألم، ولذلك أطلقوا عليها نار السَّليم، وفي ذلك يقول النابغة الذبياني:

يُسَهَّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلْيِ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ

وذلك لأنهم كانوا يعلقون عليه حلي النساء ويتركونه سبعة أيام(105).

ومن نيرانهم كذلك نار القِرَى والفداء والصيد والأسد والحرب والوَسْم والغدر والسَّلامة والمسافر والمزدلفة وهي في مجموعها تبلغ أربعة عشر نارًا(106). وذكر بعضهم نيرانًا أخرى منها نار الغول ونار الزَّحْفتين(107).

إضافة إلى ما سبق فقد وصف بعض الأوائل شبهًا ما بين النار والإنسان، ولذلك قُضِيَ لها بالقرابة؛ وعلة ذلك أن الإنسان يحيا ويعيشُ حيث تحيا النار وتعيشُ، وتموتُ وتتلفُ حيث يموت الإنسانُ ويتلف، وقد تدخل في بعض المطامير والجباب والمغارات والمعادن، فنجدها متى ماتت هناك علمنا أن الإنسان متى صار في ذلك الموضع مات. ولذلك لا يدخلها أحد ما دامت النار إذا صارت فيها ماتت، ومما يُشبَّه النار فيه بالإنسان أنك ترى المصباح قبل انطفائه ونفاد دُهنه اضطرامًا وضياءً ساطعًا، وشعاعًا طائرًا، وحركة سريعة وتنقضًا شديدًا وصوتًا متداركًا. فعندها يخمد المصباح.

---

(104) نسه: 102/1.

(105) نفسه: 104/1.

(106) النويري: نهاية الأرب: 1/ 102- 106 إضافة إلى النيران المجازية؛ منها نار البرق، والمعدَة، والحمى، ونار الشوق، ونار الشباب، والشراب، وغيرها (نفسه: 106/1-107).

(107) الجاحظ: الحيوان 107/5.

وكذلك الإنسان له قبل حال الموت وَدُوَيْنَ انقضاء مُدَّته بأقرب الحالات، حال مُطْمِعَة تزيد في القوة على حاله قبل ذلك أضعافًا، وهي التي يسمونها "راحة الموت" وليس له بعد تلك الحال لُبث[108].

وبلغ من تقديسهم للنار أن سموا صنمًا باسم المحرِّق[109] عكفت عليه عرب بكر بن وائل، وسُمي باسم هذا الصنم الإله عمرو بن هند – أحد ملوك المناذرة – فقيل له المحرِّق، لأنه كان يشق أخاديد يضرم فيها النار، ويلقي إليها بضحاياه من بني تميم، فعل ذلك في يوم "أوراة الثاني"[110]. ويقول الضبي: سُمي بذلك لأنه أحرق بني اليمامة[111] ومن ذلك ما رواه أبو الفرج الأصفهاني أنه أقسم على أثر حادثة ليحرقن مائة رجل من بني حنظلة، فأمر بحفر أخدود، وأضرم فيه النار، ورمى به أولئك المساكين[112].

ثالثًا: أساطير الجبال والأحجار:

احتلت الأحجار عند عرب الجاهلية أهمية بالغة حيث احتمل الأعراب البداة الحجارة معهم في ظعنهم من مكة، فلم يكن يظعن ظاعن من مكة، إلا ويحتمل معه حجرًا من حجارة الحرم، فحيثما حلَّ وضعه وطاف به كطوافه بالكعبة[113] ومن ثَمّ كانت عبادة الحجارة المجلوبة من حرم مكة هي البداية للوثنية، وأمَّا عن أسباب ميل العربي إلى عبادة الحجارة فغير معروفة، فلعلها عبادة سامية تتلاءم مع مزاجه البدائي، أو لعلها في نظره مهبط لقوة غيبية، أو رمز لسر غامض يستوجب التقديس[114]، وقد تمثلت هذه العبادة في شكل الأصنام المنحوتة أو الأنصاب، وهي التي ليس لها شكل معين، فكانوا يطوفون بها ويعترون عندها، وهذه الأنصاب كانت أحجارًا ذات أحجام مختلفة، وربما كانت تُجمع من أماكن بعيدة، ثم تُقطَع بحسب ما يرغب فيها من يريد نصبها وعبادتها، وقد أشار المهلهل بن ربيعة إلى ذلك، في قوله:

كَلَّا وَأَنْصَابٍ لَنَا عَادِيَّةٍ مَعْبُودَةٍ قَدْ قُطِّعتْ تَقْطِيعَا[115]

والجاهلي الوثني يبحث دائمًا في صحرائه الواسعة عن أحجار جميلة لينصبها ويتعبَّد لها حتى أصبحت عبادة الحجارة من أصنامٍ وأنصاب وغيرها غريزة متحكمة فيه لا يستطيع الإفلات من هيمنتها، وقد رُوي عن أبي رجاء

(108) الجاحظ: الحيوان 5/110-111.
(109) الزمخشري: المستقصي من أمثال العرب، ط حيد أباد الركن، 1/48.
(110) ابن رشيق: العمدة 1/168؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ 1/438، وهذا غير أوارة الأول الذي كان بين المنذر بن امرئ القيس من جانب وبكر بن وائل من جانب آخر. ابن الأثير: الكامل: 1/437.
(111) المفضل الضبي: أمثال العرب، ص 68.
(112) الأغاني: 19/129.
(113) ابن الكلبي: الأصنام، ص 6.
(114) عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، ص 55.
(115) محمد نعمان الجارم: أديان العرب فى الجاهلية، ص 174.

العطاردي، قال: "كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجرًا، وجئنا بالشـــاة، فحلبناها عليه، ثم طفنا به" (116) يعني إذا ما تماسكت وأصبحت حجرًا طاف به وعبده. فعند ذلك يهدأ نهمه الروحي، ويرضي غريزته في التعبد لشيء محسوس ملموس.

ولعل ميل العربي في عبادته إلى الأحجار لكونها –سواء أكانت صخرة أو ذهبًا أو صنمًا– تتسم بالشدة والصلابة وتحمل في ذاتها معنى الديمومة، فيتضـــاءل الجاهلي بحياته العابرة أمام طلعتها المهيبة وعظمتها وجلالها وارتفاعها في عنان السـماء، فضـلاً عن أنَّ عبادة العرب الجاهليين لها هي في حقيقتها عبادة لِما ترمز إليه من قوىً علوية خارقة للطبيعة تمتلك مقدرة النفع والضـر، من أجل ذلك اتخذوها مركزًا أو بؤرة تتجمع فيها طاقة روحية، وأداة يتوسـلون بها لتحقيق غاية معينة هي حماية أنفسهم وأموالهم(117).

والعرب كانوا يعتقدون أنّ أرواحًا خفية تحلّ في أصـــنامهم، وهم إنما كانوا يعبدون تلك الأرواح دون الجمادات التي تحلُّ فيها(118).

وهذه القوى الخفيَّة غير المنظورة هي في اعتقاد الجاهلي تســتطيع تأمين رزقه من جهة، وفي الانتصـــار على أعدائه من جهة أخرى حتَّى لقد عدَّ هذه القوى أربابًا وآلهة؛ لذلك كثيرًا ما يلجأ إلى الأصـــنام، مناجيًا الآلهة المتمثلة فيها لتحقيق هاتين الغايتين، ولقد اعتقد الأعراب أنَّ القوى الموجودة أو التي تسكن تلك الأحجار من أنصاب وأصنام هي قوى ناقمة، ومما يؤكد ذلك قصـة عمرو بن لحيّ وجلبه الأصـنام من البلقاء في الشـام، حيث وجد فيها حَمَّة، فاستحم بها فبرئ حيث كان قد وطأه المرض، ووجد أهلها يعبدون الأصنام فسألهم ما هذه؟ فقالوا: إنهم يعبدونها استسقاءً للمطر وانتصارًا بها على العدو، فسألهم أن يعطوه بعضـها، فحملها إلى مكة ونصبها حول الكعبة(119) من أجل ذلك كانوا يعتقدون أن هذه الأصـــنام تدرُّ عليهم الخير، وكلَّما تقرَّبوا إليها بالنذور والأضـــاحي زادت في منْحهم الرزق الوفير، ومن خرافاتهم في ذلك أنَّ اللّات كانت في الأصل صخرة يُلتُّ عليها رجل الطعام للحجيج، وعلى ذلك أبقى ســـدنتها عادة إطعام من يَفد إليها حاجًا ومتعبدًا(120) ولذلك نجد من أصـــنامهم ما اختص

---

(116) ابن كثير: البداية والنهاية، 188/2؛ ومحمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، مطابع الشعب، 1378هـ، 216/5؛ والألوسي: بلوغ الأرب: 211/1.

(117) محمد عجينة: موسوعة أساطير العرب، ص 237.

(118) "أديان العرب في الجاهلية، ص 122؛ عبادة الأرواح في المجتمع الجاهلي، ص 3، وهو عنوان لمحاضرة ألقاها علي محي الدين، في الندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، في جامعة الرياض، 1979م.

(119) ابن هشام: السيرة النبوية، ط السقا، 77/1، ابن الكلبي: الأصنام، ص 8.

(120) ابن الكلبي: الأصنام، ص 16.

بالرزق، مثل صنمٍ يُدعَى "مُطْعِم الطير"[121] وكذلك كان نصب هُبل على بئرٍ في جوف الكعبة سببًا في اعتقادهم أنه مانحهم الماء من البئر[122]، أما عن اعتقادهم أنهم يستنصرون بها على الأعداء فهذا أمر طبيعي في بيئةٍ تقوم على الغارات والغزوات، فهم لا ينتهون من إغارة حتى يلحقوها بأخرى، وكل إغارة تولِّد الثأر، وتبعث على الانتقام، فكانوا دائمًا بين حرب النهب والسلب والسبي وحرب الثأر والانتقام من الأعداء، ومنْ أقدرُ على نصرهم من الآلهة؟ وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ}[123]، وقوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا}[124].

ويبدو أن العرب الجاهليين كانوا يتصورون أنَّ الآلهة تصحبهم في الحروب، وتقاتل معهم لتنصرهم على أعدائهم، وإلى هذا يشير الشاعر:

وَسَارَ بِنَا يَغُوثُ إِلَى مُرادٍ فَنَاجَزْناهُمْ قَبْلَ الصَّباحِ[125]

وكذلك كانوا يعتقدون أنها لا تقاتل منفردة، بل لبعضها جنودًا يقاتلون معها، وقد أشار أبو سفيان إليهم حين أسلم معتذرًا عما كان فيه:

لَعَمرُكَ إِنِّي يَوْمَ أَحْمِلُ رَايَةً لِتَغْلِبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ مُحَمَّدِ
لَكَالمدْلِجِ الحَيْرَانِ أَظْلَمَ لَيْلُهُ فَهَذَا أَوَ انِي حِينَ أُهْدِي وَأَهْتَدِي[126]

وكذلك اعتقدوا أنَّ الآلهة تستعد مثلهم للحروب، فترتدي الدروع، وتتقلد السيوف، وتتنكب الأقواس، وتشهر الرماح، ومما يرجح هذا الاحتمال وجود بعض أصنامهم على هيئة محارب عظيم، فقد رُوي عن وَدّ أنه "كان تمثالَ رجلٍ كأعظم ما يكون من الرجال، فقد ذُبِر عليه حُلَّتان: مُتَّزِرٌ بِحُلَّةٍ، مُرْتَدٍ بأخرى عليه سيفُ قد تقلدهَ، وقد تنكَّب قوسًا، وبين يديه حربةٌ فيها لواءٌ ووَفْضَة (أي جعبة) فيها نَبْل[127].

هذا الذى دفع الأب "هنري لامنس" إلى تقرير حمل العرب الجاهليين أصنامهم في الحروب حيث يقول: "إن أخبار الطائف تطلعنا على وجود اللاَّت في إحدى المعارك المهمة، من حرب الفجار، وهناك خباء أو بيت نُصِب قبل

(121) الأزرقي: أخبار مكة 196/1.
(122) نفسه: 187/1.
(123) سورة يس، آية 74؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 593/6.
(124) سورة مريم، آية 81؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم،261/5.
(125) ابن الكلبي: الأصنام، ص 10.
(126) ابن هشام: السيرة النبوية 401/2، طبعة السقا.
(127) ابن الكلبي: الأصنام، ص 56.

المعركة لئلا يكون محلا، على ما يظهر، لإلهة الطائف. وكان مدار الخباء يمثل حدَّ حرمٍ منيعٍ، لا يمكن خرقه، فيظل ملاذًا أمينًا للاجئين"(128).

وقد أشار ضرار بن الخطَّاب الفهري إليه، حيث قال:

وفَرَّتْ ثقيفٌ إلَى لاتِهَا　　　بِمُنْقَلبِ الخائبِ الخاسرِ(129)

وقد اعتقدت العرب أن الآلهة تجير من لجأ إليها، وتنصره على أعدائه، أو تحميه منهم، نلمح ذلك في شعر بُجير بن زهير بن أبي سُلمى يخاطب أخاه كعبًا ويدعوه إلى الإسلام، طالبًا منه أن يستجير بالله، لا باللاَّت والعُزّى:

فَمنْ مُبلغٌ كعبًا فهَل لَكَ في التي　　　تَلُومُ عَلَيْها بَاطِلاً وَهِيَ أَحْزَمُ

إلَى الله، لَا العُزَّى وَلَا اللاَّت، وَحْدَهُ　　　فَتَنْجُو إذا كانَ النَّجَاءُ وتَسْلَمُ

فَدِينُ زهيرٍ، وَهُوَ لَا شَيء دِينُهُ　　　وَدِينُ أَبي سُلمَى عَلَيَّ مُحَرَّمُ(130)

وكان من مظاهر تعظيم العرب الجاهليين لآلهتم وإعلائهم إياها مكانة جليلة أنَّهم جعلوها مدار أيمانهم المغلّظة، وعقدوا بها عهودهم لتوثيقها وتمْتِينها، وخشَوا خشيةً شديدة من الحنث بالأيمان المعقودة على أصنامهم؛ من ذلك حلفهم باللات والعُزّى في كثير من أيمانهم، ومنه قول أبي الطمحان القَيْني:

جَزَاءَ سِنِمَّارٍ جَزَوْها، ورَبِّهَا　　　وباللاَّتِ والعُزّى، جزاء المكَفَّرِ(131)

وكذلك قول أوس بن حجر:

وباللاتِ والعُزَّى ومَنْ دانَ دينَهَا　　　وباللهِ إنَّ اللهَ مِنْهُنَّ أَكْبَرُ(132)

وكانت العرب يخوّفون من يحنث بهذه الأيمان والعهود؛ لأن الآلهة بما لها من قوة وسيطرة تستطيع البطش به وإيذاءه، وقد ألمح إلى هذا الأمر خدّاش بن زهير في شعر يخاطب فيه رجلاً كان قد عاهده أمام ذي الخلصة ثم غدر به:

وَذَكَرتُهُ بِاللهِ بَيني وَبَيْنَهُ　　　وَمَا بَيننَا مِنْ مُدَّةٍ لَوْ تَذكَّرَا

وَبِالمَرْوَةِ البَيْضَاءِ يَوْمَ تَبَالةٍ　　　وَمَحْبَسَةِ النُّعْمَانِ حَيْثُ تَنصَّرَا(133)

---

(128) مجلة المشرق: السنة 36 لعام 1938م، 504/1.

(129) ابن هشام: السيرة النبوية، ط السقا، 47/1.

(130) نفسه: 502/2.

(131) خزانة الأدب: 294/1.

(132) ابن الكلبي: الأصنام، ص 17. وأوس بن حجر: ديوانه، ص36.

(133) نفسه: ص 35.

غير أن العرب الوثنيين على الرغم من اعتقادهم أنَّ آلهتهم مصدر الخير والنفع، فإنهم إذا ما وجدوا منها ما يخالف تصوّرهم صبُّوا غضْبتهم عليها، غير عابئين بها وبلعناتها وويلاتها، فهذا رجل من بني مَلْكان يأتي إلى صنمه سَعْد بإبل، يريد أن يهبها له، التماسًا لرضاه وبركته، فلمَّا أدناها منه، وكان عليه بعض دماء العتائر، نفرت إبله وذهبت في كل وجه متفرقة، فلمَّا عاين ذلك المِلْكانيُّ تملّكه الغضب الشديد، وتناول حجرًا فرمى الصنم به صارخًا: "لا بارك اللهُ فيك إلهًا، أنفرت علي إبلي" وانصرف عنه وهو يقول:

أَتَيْنا إِلَى سَعْدٍ لِيَجْمَعَ شَمْلَنَا فَشَتَّتَنا سَعْدٌ فَلَا نَحْنُ مِن سَعْدِ
وَهَلْ سَعْدُ إِلاَّ صَخْرَةٌ بِتَنُوفَةٍ مِنَ الأَرْضِ لَا تَدْعُو لِغَيٍّ وَلَا رُشْدِ[134]

وكثيرًا ما كان الأعراب البداة يقدِّمون النذور والقرابين والهدايا طلبًا لرضا الآلهة ودفعا لشرها ونقمتها، فاللات كانت لها خشية عظيمة في نفوس أتباعها، وخاصة في قبيلة ثقيف، فحينما بعث الرسول "صلى الله عليه وسلم" المغيرة بن شُعْبة إلى الطائف لِهدْم اللاَّت، وكان المغيرة يعلم مدى هيبتها في نفوس عبَدَتها، تظاهرَ لما بدأ بهدمها بأنه أُصيب، فصرخ وخرّ على وجهه، فإذا الطائف ترتجُ بالصياح سرورًا بأنَّ اللات قد صرعت المغيرة، وأقبل أهلها يقولون: "كيف رأيتها يا مغيرة، دونَكَها إنْ اسْتطعت، ألم تعلم أنها تُهلك من عاداها؟ فقام المغيرة يضحك منهم، ويقول: يا خبثاء، واللهِ ما قصدتُ إلا الهزءَ بكم..."[135].

وروي أيضًا أن امرأة رومية تُدعَى "زِنِّيرة" كانت بمكة فأسلمت، ثم عميت، فقال المشركون: أعمَتْها اللاَّتُ والعُزَّى، وقالت قريش: ما أذهبَ بصَرها إلا اللاَّت والعُزَّى[136].

ولما كان من الأساطير ما هو تفسيرٌ وتأويلٌ لشعائر دينية أمْكننا أنْ نحكم على أن الدين عُنْصُرٌ من عناصرها. فالأسطورة من أهم عناصر الدين القديم[137] فالدين لا شك يشكِّل الأسطورة، سواء كان هذا الدين عبادة للأصنام أو غير ذلك[138] ومما لا ريب فيه أن الأسطورة بعامة تضمنت كثيرًا من العقائد الدينية؛ بل إن راوي أو كاتب الأسطورة يتعمد إقحام بعض الشعائر الدينية فيها ليبلغ مرحلة الكمال الفني[139].

---

(134) ابن هشام: السيرة النبوية، ط السقا، 81/1.

(135) السهيلي: الروض الأنف، 372/7.

(136) ابن حجر السعقلاني (أحمد بن علي بن حجر، ت: 852هـــ): الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ-1992م، 664/7.

(137) محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام، ص 10.

(138) حسين مجيب المصري: الأسطورة بين العرب والفرس والترك "دراسة مقارنة"، ص 33.

(139) محمد التونجي: دراسات في الأدب المقارن، حلب، 1982م، ص 66

ومن أولى الأساطير التي تنعدم فيها الفواصل والحواجز بين مختلف عوالم الطبيعة حتى ينقلب فيها الحجر إنسانًا والإنسان حجرًا -أسطورة "إساف ونائلة" وهي من أساطير المسخ، فإساف ونائلة كانا وثَنيْن من أوثان قريش، وأنهما كانا في وقت ما متباعدين أحدهما يلصق بالكعبة، والآخر عند زمزم ثم قُرِّب بينهما في وقت متأخر(140).

وقد بلغ من تقديسهما أن الأعراب اتخذتهما للعبادة فكانوا يذبحون عندهما ويحلقون رؤوسهم عندهما إذا نكسوا(141) ومما يؤكد ذلك ما جاء في قصة حفر بئر زمزم من أنَّ الهاتف الذى هتف بعبد المطلب في منامه أنْ احفر زمزم، قد عين له موقع زمزم بأنه بين الفرث والدم عند قرية النمل، حيث ينقر الغراب الأعصم، وكان ذلك الموقع بينهما، وأن قريشًا حاولت صدَّه عنْ أن يحفر في ذلك الموضع؛ تقديسًا لمكانة الوثَنيْن(142) وكان من قداستهما أن اعتبرتهما العرب من شعائر الطواف في الحجّ الجاهلي حيث كانوا يطوفون عراة إذا لم يجدوا ثوبًا من أحمسي(143) إعارةً أو إجارة، وأن الوثنيْن كانا من "المواقف"، يقول الأزرقي في أخبار مكة: "فإن أعاره أحمسي ثوبًا أو أكْراه طاف به، وإنْ لم يعره ألقَى ثيابه بباب المسجد من خارج، ثم دخل الطواف وهو عريان، يبدأ بإساف فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه، فإذا ختم طوافه سبعًا استلم الركن، ثم استلم نائلة، فيختم بها طوافه، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس فيأخذها فيلبسها، ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عريانًا، فإذا فرغ من طوافه نزع ثيابه التي عليه فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل، فإذا فرغ من طوافه نزع ثيابه، ثم جعلها لقىً(144) يطرحها بين إساف ونائلة، فلا يمسها أحد، ولا ينتفع بها حتى تبلى من الشمس والرياح والمطر ووطء الأقدام، وفيه يقول ورقة بن نوفل الأسد:

كَفَى حَزَنًا كَرّي عَلَيْه كَأَنَّهُ لَقًا بَيْنَ أَيْدِي الطَّائفين حَرِيمُ(145)

(140) ابن الكلبي: الأصنام، ص 20، والأزرقي: أخبار مكة: 1/190-191.

(141) الأزرقي: أخبار مكة 1/194.

(142) طبقات ابن سعد 1/83، ويذكر ابن هشام في سيرته خبرًا عن ابن اسحاق فيه "واتخذوا إسافًا ونائلة على موضع زمزم ينحرون عنده، وكان إساف ونائلة رجلاً وامرأة من جرهم – هو إساف بن بغي ونائلة بنت ديك – فوقع إساف على نائلة فى الكعبة، فمسخهما الله حجرين". ابن هشام: السيرة النبوية، ط السقا: 1/82

(143) يُعرف الأحمسي بأنه المتشدد فى دينه، وضده الصرورة، والحمس أهل مكة –قريش وكنانة وخزاعة والأوس والخزرج وجشم، ومن دان دينهم ممن ولدوا من حلفائهم، وإن كان من ساكني الحل" (والخبر في الأزرقي: أخبار مكة 1/269-270 بتفصيل فيه).

(144) واللقى: هذه الثياب التي كانوا يطوفون فيها يرمون بها بباب المسجد، فلا يمسها أحد من خلق الله حتى تبليها الشمس والأمطار والرياح ووطء الأقدام. [الأزرقي: أخبار مكة:1/ 274]

(145) الأزرقي: أخبار مكة 1/273-274.

ومما يؤكد هذه القداسة عندهم في هذين الصنَميْن أنه لم تكن تدنو منهما امرأة طامث، ومصداق ذلك قول بشر بن أبي خازم:

عَلَيْهِ الطَّيْرُ مَا يَدْنُونَ مِنْهُ مَقَامَاتِ الْعَوَارِكِ مِنْ إِسَافِ[146]

وأغلب الظن أن تلك الخرافة التي أشاعتها قريش بشأن إساف ونائلة وفعلهما الفاحشة في البيت الحرام هي من قبيل الإرهاب والتخويف للحجاج لتعظيم الكعبة، وتهييب الفعل الشائن في الحرم خاصة وأنَّ بعض العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة أو شبه عراة.

ومن الخرافات التي حُكِيت حول هذين الصنمين مآلهما بعد فتح مكة، وتكسير ما كان بها من أصنام وانشقاق الصخر عن البشر، يقول الواقدي: "فلما كسرت الأصنام كسرًا، خرجت من أحدهما امرأة سوداء شمطاء تخمش وجهها، عريانة ناشرة الشعر، تدعو بالويل، فقيل لرسول الله في ذلك، فقال: تلك نائلة أيست أن تعبد ببلادكم أبدًا"[147]، ويستخرج من أسطورة إساف ونائلة بظاهرتين؛ أولهما: المسخ وهو ضرب من الجزاء والعقاب لزجر من تحدثه نفسه أنْ يأتي فعلًا محرمًا في البيت الحرام، وثانيهما: قداستهما ودخولهما ضمن طقوس الحج الجاهلي، فهذه الأسطورة لها وظيفة تعليلية؛ حيث تفسر أصل وجود هذين الصنمين، ووظيفة أخلاقية، فطقوسهما تعبر عن قداسة معنى الخصوبة، ومبدأي المذكر والمؤنث.

ومن المرجح أن إساف ونائلة كانا تجسيدًا لمعتقدات أسطورية ولشعائر تتصل بعبادة الحجارة، وأنهما يمثلان طورًا متأخرًا؛ لأن تشكل الحجر في صورة إنسان مرحلة لابد أنها كانت بعد تقديس الأنصاب، هذا وقد طال الصنمان قائمين معبودين حتى مجيء الإسلام وفتح مكة[148].

ومن أساطير المسخ أيضًا الأسطورة التي حيكت لجبل طيء "أجأ" وصنم "الفلس".

لقد وصف جبل طيء أجأ بتشابه بينه وبين شكل الإنسان، وكان هذا هو السر فيما حيك عنه من أساطير، وأنه كان رجلًا في الأصل مُسخ جبلاً، والفلس صنم قديم جدًا، وجد اسمه في النصوص اللحيانية[149]؛ وقد وصفه ابن الكلبي بقوله: "كان لطيء صنم يقال له الفلس، وكان أنفًا أحمر وسط جبلهم الذى يقال له أجأ، أسود كأنه تمثال إنسان، وكانوا يعبدونه ويهدون إليه ويعقرون عنده"[150]، وأما عن أسطورته فقد أوردها ياقوت في معجمه، وهي أسطورة طريفة، وهي في الوقت نفسه أسطورة حلول جد قبيلة طيء اليمنية الأصل في الجبل الذى ينسب

---

(146) نفسه: 191/1. والبيت في ديوان بشر فيما نُسِب إليه: ص233.

(147) الأزرقي: أخبار مكة، 194/1.

(148) تاج العروس، مادة (أسف)

(149) جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، 279/6؛ ابن حبيب: المحبر، ص 316.

(150) ابن الكلبي: الأصنام، ص 59.

إليهم، يقول: "سار طيء بإبله وولده حتى نزل الجبلين، فرآهما أرضًا لها شأن، ورأى فيها شيخًا عظيمًا جسيمًا مديد القامة على خلق العاديين ومعه امرأة على خلقه يقال لها سلمى، وقد اقتسما الجبلين بينهما. فأجأ رجل من العماليق، يقال له أجأ بن عبد الحي عشق امرأة من قومه، يقال لها: سلمى، فسألهما طيء عن أمرهما، فقال الشيخ: نحن من بقايا صُحار غنينا بهذين الجبلين عصرًا بعد عصر أفنانا كَرَّ الليل والنهار. فقال له طيء: هل لك في مشاركتي إياك في هذا المكان، فأكون لك مؤانسًا وخلا؟ فقال الشيخ (الجبل): إن لي في هذا رأيًا فأقم، فإن المكان واسع... ويقال إن لغة طيء من لغة الشيخ (الجبل) الصُحاري والعجوز امرأته"(151).

أما العُزَّى فقد قيل عنها أنها كانت شجرة بالقرب من عرفات، كانوا يذبحون عندها ويدعون، ومضى إليها خالد بن الوليد وقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها فيئست العُزَّى أن تعبد(152).

فهذه الأسطورة لازمت العُزَّى قبل الإسلام وفى صدره، وأسطوريتها متمثلة في خروج الشيطانة ناشرة شعرها منها، وإن كان هذا سببًا في أنها لم تعبد.

أما الأساطير التي نسجها الجاهليون حول الجبال والتي تشير إلى أن الأرض استقرت بواسطتها بعد ما كانت تمتد كالسفينة في اليمّ، ففي إحدى الروايات أن الباري بعد أن خلق القلم "خلق النون، فدحا الأرض عليها، فارتفع بخار الماء ففتق منه السماوات، فاضطربت النون فمارت الأرض، فأثبتت بالجبال، وإنَّ الجبال تنفجر على الأرض إلى يوم القيامة"(153). هذا عن الجبال في أساطير الخلق أما عنها في أساطير "صورة الكون" فهم يتوهمون الأرض على ظهر "نون" أي الحوت، وأن "الحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على متن الريح"، وأنه قد "تزلزلت الأرض فأمر (الباري) الأمواج، فأرسلت عليها جبالاً جامدة فاستقرت وثبتت"(154).

وأغلب العرب يعودون بنشأة الجبال إلى زمن فردوسي يسمي بزمن الفطحل، وهو زمن أسطوري كانت فيه الصخور رطبة لينة، وكل شيء يعرف وينطق زمن لم يكن على الأشجار والنخل من شوك، وهو إذن زمن فردوسي ".(155)

---

(151) ياقوت الحموي: معجم البلدان، 123/1- 127.

(152) الألوسي: بلوغ الأرب، 346/1.

(153) المقدسي: البدء والتاريخ، 146/1-147.

(154) المسعودي: أخبار الزمان المنسوب إليه، ص 26.

(155) الجاحظ: الحيوان، 202/4، ويستشهد بأبيات لأمية بن أبي الصلت:

وإذ هم لا لبوسَ لهمْ تقيهُمْ وإذا صُم السِّلامُ لهم رِطابُ

بآيةِ قامَ يَنْطِقُ كلُّ شيءٍ وخان أمانةَ الديكِ الغرابُ

[ديوانه، ص23-24؛ وانظر الحيوان 196/4]

Issue N.32- Vol.1 / ISSN:2958-8537

الخاتمة:

توصل البحث إلى عدد من النتائج كان من أهمها ما يأتي:

- الأساطير أثرت في فكر الجاهلي تأثيرا واضحا، وربما يرجع السبب في ذلك إلى أن العقلية البدائية يناسبها الاعتقاد فى الأرواح الكامنة في الأشياء
- تقديس الماء والنار والجبال يرجع إلى عظم هذه الأشياء في حياتهم. فالماء سر الحياة، والنار هي التي يسترضونها في كل مواقفهم، والأحجار هي المكون الأساس لمعبودهم.
- ارتبط نزول المطر بتحقق أمانيهم، وتحقيق الجمال والازدهار في أراضيهم.
- أتى وصف الجاهليين للمطر تعبيراً جماعيا مستقلا عن وعي الفرد الذاتي رغبة في الطهر والصفاء والنقاء.
- كانت هناك علاقة قوية بين النار والمطر، فالنار عندهم هما المانحة للمطر؛ لذا فقد استسقوا بها، وصوروا إشعال النيران في السحب المتراكمة على هيئة برق يلمع.
- النار عندهم سماوية علوية، بل سموا أحد أصنامهم باسمها، وجعلوا من إخماد النار عملاً بطوليًّا لمن يقوم به، وقدموا القرابين من البقر للنار ليستسقوا بها.
- عقدوا علاقة مشابهة بين النار والإنسان، فهو يحيا حيث تحيا النار، ويموت حيث تموت.
- ربما يرجع السبب في تقديس الحجر لما له من القوة والصلابة التي تجعل فيه الديمومة.

المصادر والمراجع:

ابن الأثير: (**عز الدين علي بن أبي الكرم محمد، ت: 630هـ**): **الكامل في التاريخ**، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1415هـ- 1995م.

ابن الأجدابي: الأزمنة والأنواء، تحقيق عزة حسن، دمشق، 1964م.

الأزرقي (**أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد، ت: 250هـ**): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: عبد المللك بن عبد الله بن دهيش، مكتبة الأسدي، الطبعة الأولى، 1424هـ- 2003م.

الأسود بن يعفر النهشلي: ديوانه، تحقيق نوري القيسي، بغداد، 1970م.

الأشعري: مقالات الإسلاميين، اختلاف المصلين، مصر 1389هـ-1969م.

الأصمعي (**أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك**): الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر، 1976م.

الأصمعي: كتاب النبات والشجر، تحقيق أوغست هفنز، طبع بيروت، 1908م.

الأعرابي (أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي): كتاب البئر، تحقيق د. رمضان عبد التواب، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1990م

الأعشى الكبير (ميمون بن قيس): ديوانه، تحقيق: محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط7، مزيدة ومنقحة، 1983م.

الألوسي البغدادي (محمود شكري): بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (د.ت).

امرؤ القيس بن حجر، ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، 1964م.

أمية بن أبي الصلت: ديوانه، جمعه وحققه: سجيع جميل الجبيلي، دار صادر، بيروت، ط1، 1998م.

أمين مدني: **التاريخ العربي وبدايته، دار المعارف بمصر، 1964م**،

أنور أبو سويلم: المطر في الشعر الجاهلي، دار عمار– عمان، دار الجيل– بيروت، الطبعة الأولى، 1407هـ–1987م.

بشر بن أبي خازم: ديوانه، تحقيق: عزة حسن، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، 1379هـ- 1960م.

البغدادي (عبد القادر بن عمر) ت: 1093هـ: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الرابعة، 1997م.

البغدادي (عبد القاهر): **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1402هـ–1982م**،

البيروني: **الآثار الباقية من القرون الخالية، طبع ليبزج، 1923م**،

التبريزي: **يحيى بن على، شرح المفضليات، تحقيق على البجاوى، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة، 1977م**

الثعالبي: **(أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل) (350 – 429هـ)**: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، سلسلة ذخائر العرب، 1985م.

الثعلبي النيسابوري (أبو اسحق أحمد بن محمد): كتاب عرائس المجالس فى قصص الأنبياء، ط المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان (د. ت)،

ثناء أنس الوجود: رمز الماء في الأدب الجاهلي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، عبده غريب، 2000م.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر، ت: 255هـ): البرصان والعرجان، تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الاعتصام، القاهرة، 1972م.

الجاحظ (**أبو عثمان عمرو بن بحر، ت: 255هـ**): الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، تقديم، أ. د أحمد فؤاد باشا، سلسلة الذخائر، العدد (79)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2002م.

جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط المجمع العراقي (د.ت)/ ط دار العلم للملايين، بيروت / ط بغداد، الطبعة الثالثة، 1413هـ - 1993م.

جيمس فريزر: أدونيس، دار الصراع الفكري، بيروت، 1957م.

جيمس فريزر: الغصن الذهبي، ترجمة أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1971م.

ابن حجر السعقلاني (أحمد بن علي بن حجر، ت: 852هـ): الإصابة فى تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ-1992م،

الدياربكري (الحسين بن محمد): تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، طبعة بيروت، مؤسسة شعبان، (د.ت).

ديوان المرقشين:

ابن رشيق القيرواني الأزدي (أبو علي الحسن بن رشيق، 390 – 456هـ): العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، حققه وفصله وعلق حواشيه، محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل – بيروت، الطبعة الخامسة، 1401هـ - 1981م.

الزَّبيدي: (**محمد مرتضى: ت1205هـ**) تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- مطبعة حكومة الكويت، نشر الجزء الأول سنة 1965م، والأخير 2001م.

الزمخشري الخوارزمي (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، ت : 538 هـ): المستقصى من أمثال العرب، ط حيدر آباد الدكن، الهند.

سحيم عبد بني الحسحاس: ديوانه، تحقيق: عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، 1986م،

ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، ت: 230هـ): الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، د.ت.

السكري (أبو سعيد الحسن بن الحسين، ت: 275هـ): شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبد الستار فراج، مطبعة المدني، مصر.

سمية أسعد : الأسطورة فى الأدب الفرنسي المعاصر، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد السادس عشر، العدد الثالث.

السهيلي (**ت 508 – 581هـ**): الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ومعه السيرة النبوية لابن هشام (ت 218هـ)، تحقيق وتعليق وشرح عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الأولى، 1387هـ - 1967م.

ابن سيده: كتاب الأنواء، ضمن كتاب المخصص، طبع المكتب التجاري، بيروت (د. ت).

الشهرستاني (**479–548هـ**): الملل والنحل، تقديم وإعداد الدكتور عبد اللطيف محمد العبد، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، 1977م.

طاش كبري زاده (أحمد بن مصطفى): مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1985م.

عبادة الأرواح في المجتمع الجاهلي، وهو عنوان لمحاضرة ألقاها علي محي الدين، فى الندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، فى جامعة الرياض، 1979م.

عبد الكريم النهشلي القيرواني: الممتع فى علم الشعر وعمله، تحقيق: منجي الكعبي، دارالعربية للكتاب، ليبيا – تونس، 1978م،

عبد المنعم تليمة: مقدمة فى نظرية الأدب، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، 1976م.

عبيد بن الأبرص: ديوانه، تحقيق: حسين نصار، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

على البطل: الصورة الفنية فى الشعر العربي، دار الأندلس، بيروت، 1980م،

عمرو بن قميئة: ديوانه، عمي بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، 1385هـ- 1965م.

عمرو بن معد يكرب الزبيدي: شعره، تحقيق مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1974م.

أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الكتب المصرية، والهيئة المصرية العامة للكتاب، من 1952-1994م.

فريدرش ديرلاين: الحكاية الخرافية، نشأتها ومناهج دراستها، ترجمة نبيلة إبراهيم، بيروت، دار القلم، 1973م.

ابن قتيبة: الأنواء فى مواسم العرب، طبع حيدر آبار، الدكن، الهند، 1956م،

ابن قتيبة: المعارف: تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف بمصر، 1969م،

القزويني (زكريا بن محمد بن محمود، ت 682هـ): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر – بيروت، 1960م.

Issue N.32- Vol.1 / ISSN:2958-8537

القلقشندي: (أبو العباس أحمد بن علي، ت: 821هـ): صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، 1340هـ - 1922م.

ك. ك. رانفين: الأسطورة، ترجمة، جعفر صادق الخليلي، منشورات عويدات، بيروت، سلسلة زدني علما، ط1، 1981م.

ابن كثير: (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ت: 744هـ): البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، د.ت.

لبيد بن ربيعة العامري: ديوانه، حققه وقدم له د. إحسان عباس، سلسلة التراث العربي، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1962م.

لطفي عبد البديع: عبقرية العربية في رؤية الإنسان والحيوان والسماء والكواكب، النادي الأدبي الثقافي (34)، مطبعة دار البلاد-جدة، الطبعة الثانية، 1406هـ-1986م.

لويس شيخو: أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء، طبع برخصة نظارة المعارف بالاستانة في بيروت بالمطبعة الكاثوليكية، 1896م.

مالك بن أنس، ت: 179هـ: الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي، حققه وخرج أحاديثه: بشار عواد معروف، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1417هـ-1997م،

مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مطابع الدار الهندسية، **القاهرة**، الطبعة الثالثة، 1405هـ-1985م.

محمد التونجي: دراسات فى الأدب المقارن، حلب، 1982م،

محمد السفاريني الحنبلي: ثلاثيات مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي، دمشق، 1380ه

محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، مطابع الشعب، 1378ه

محمد خليفة حسن أحمد: الأسطورة والتاريخ فى التراث الشرقي، دراسة فى ملحمة جلجامش، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، 1988م.

محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937م.

محمد عجينة: أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها، دار الفارابي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1994م.

محمد نعمان الجارم: أديان العرب في الجاهلية، مطبعة السعادة، القاهرة، 1923م.

محمود سليم الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب (بحث مسهب في المعتقدات والأساطير العربية قبل الإسلام) دار النهار للنشر، الطبعة الثانية، بيروت، 1979م.

المسعودي (على بن الحسين، ت:246هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 1408هـ - 1988م.

المسعودي (على بن الحسين، ت:246هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 1408هـ - 1988م.

مصطفى الشورى: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الطبعة الأولى، 1996م.

المفضل بن محمد الضبي: المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر، 1976م.

المفضل بن محمد الضبي، ت: 168هـ: أمثال العرب، مطبعة الجوائب بالقسطنطينية، 1300هـ.

المقدسي (المطهر بن طاهر، ت: 355هـ) المنسوب لأبى زيد أحمد بن سهل البلخى (بدء الخلق والتاريخ): نشر كليمان هوار، باريس، 1899م- 1919م.

النابغة الذبياني: ديوانه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، 1977م.

أبو نواس: ديوانه، تحقيق: وليم بن الورد، جريف سفالد، 1861م.

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) (ت 733هـ): نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق الدكتور مفيد قميحة، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1424هـ-2004م.

الهذليون: ديوان الهذليين، الطبعة الثانية، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1965م.

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، ت: 213هـ): السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي، الطبعة الثانية، القاهرة، 1955م.

ياقوت الحموي: معجم البلدان، عناية: محمد أمين الخانجي، وراجعه: أحمد بن الأمين الشنقيطي، على نفقة أحمد الجمالي، ومحمد أمين الخانجي، مطبعة السعادة، القاهرة، 1323هـ- 1906م.

Encyc of Religion Vol. 1. Arabs

Malinowski Bronislaw, magic, science and religion and other Essays, double day so company. Incncw Yayh 1954.